د. عبد الهادي التازي

أمير مغربي في طرابلس

1143 هـ = 1731 م

أو

ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي







د. عبد الهادي التازي

أمير مغربي في طرابلس

1143 هـ = 1731 م

أو

ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي



بسم الله الرحمن الرحيم

« رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي
أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا
ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي »



مقـــدمــــــة

كنت اشعر بكل معاني الفخر والاعتزاز وانا اتسلم اوراق اعتمـــادي سفيرا للمغرب في ليبيا ، ذلك لانني سعدت بالاسهام في ربط حلقة مـــن حلقات الود والاخاء التي تجمع بين البلدين الشقيقين عبر التاريخ ، وكانت مناسبة طيبة لي ان استعرض تلك الاواصر والروابط ، وهكذا لاحـــت امامي بارزة متعالية مصادفات كانت تستوجب الوقوف عندها والاسترشاد بومضاتها ، لكن هناك حدثا تاريخيا ما انفك يهيمن على كل تلك المناسبات واعني به زيارة بعض الامراء العلويين الى الاراضي الليبية ، وبخاصة الامير الجليل سيدي محمد بن عبد الله الذي اصبح فيما بعد محمد الثالث ملك المغـــــرب .

* * *

يظل الملك سيدي محمد بن عبد الله الشخصية العظيمة التي فرضت تقديرها واحترامها طيلة ثلث قرن في الصعيدين الوطني والدولي ، وظلت ايامه الزاهرة درة في جبين التاريخ بما كتب عنها هنا وهناك ، وقد حبب الي ان اتتبع المراحل الاولى من حياة هذا الملك الماجد لاعرف كيف واين ومتى اكتملت شخصيته التي تارجت بذكرها رحاب الدنيا قديمها وجديدها ان المرء لا يمكن بحال ان يصبح عظيما بين عشية وضحاهـــا والا كانـــت عظمته واقفة على كثبان من رمال ، وان قيادة الامم لا يكفي فيها نصيـــب معين من التعليم والتربية بل لا بد فيها من مراس عملي متلاحق ، ولهـــذا اتجهت الى الخطوات المبكرة التي سلكها الامير الصغير خارج بلاده لانهـــا في تقديري كانت البادرة الاولى لما كان ينتظره من جليل الاعمال سيما ونحن نرى انها اى الخطوات كانت مقترنة بطائفة مهمة من الملابسات التي مـــن شانها ان تفتح البصيرة وتنير السريرة ، سيما ايضا وقد كان الى جانب جدةلهعالمةفاهمة عاشت معظم ايامها تسهم في تسيير الدولة مع السلطان المولى اسماعيل ... والى جانب وزير كاتب بارع له خبرة بالاحـــوال نافذة ، وحنكة في السياسة زائدة ، ثم الى سفير لامع من سفراء الدولة له المام واسع بفنون المجاملات والمكايسات والى جانب رجل قانون تضلع

من الفقه واستوعب ، وتبوا كرسي القضاء عن استحقاق وجدارة ، والى جانب استاذ مشرف على تربيته وتعليمه ، الى رفاق آخرين فرسان أقوياء اشداء يرى فيهم صباح ومساء المثل الاعلى للاخلاص والولاء ...

لقد امسى محمد ملكا بعد عراك عنيف من أجل أن تنتصـــر مبادىء الحق ، أمسى محمد ملكا في سهولة ويسر زائدين ، ولهذا وجد الشعـــب امامه اطوع اليه من بنانه ، فان معرفته بالاحوال كانت سابقة ، فلم يجد نفسه في جو نافر منه غريب عليه ، وقد احتضنته الامة احتضانها لقلب هو منها واليها ولم يكن هنا ابدا شعور بمغامـــرات زرع موقوتـــة النجـــاح مشكوكـــة المصيـــر .

* * *

والحقيقة انه عندما تعد مناقب الدولة المغربية ومحامدهـا يجـــب ان يحسب في صدر ذلك حرص الملوك على اعداد أبنائهم منـــذ الصغـــر المبكر اعدادا يجعلهم يعيشون مع الشعب واليه ، ويمكنهم من فتح عيونهم منذ الايام الاولى على المهام الجسام .. ان ذلك اثمن واغلى ما يقدمـــه القادة الى شعوبهم ، اجل واقوى ضمانة على استمرار الدولة في الخـــط السليم القويم ، احكم واصدق سبيل للاستفادة من الاستقرار السعيـــد الـرغيـــد .

لقد اخترت الحديث عن ايام عبر فيها سيدي محمد ليبيا وهو لـــم يزل طفلا لأضع خطا عريضا على فترة هامة جدا من فترات اعداده وتكوينه، كان لها اكبر الاثر في نظرنا على عهده الذي كانت له آثار تجاوزت الساحة المغربية .. وقد رايت ، وقد صح مني العزم على تحرير هذا البحث على شرف الامير الجليل ، رايت ان احلل ذلك بما قد يضفي بعض الضوء على العلاقات المغربية الليبية عبر التاريخ من غير ان اهمل تعريفا مقتضبـــا بالشخصيات الهامة التي رافقت الامير في زيارته ومع اعطاء فكرة عن جو الاستقبال مستقاة من المصادر المغربية والليـــبية والاجنبـــية ، وقد بذلت الجهد في التعريف بالشخصيات التي اجتمع بها الركب المغربي وكـــذا

بالمعالم التاريخية التي تمت زيارتها . وعنيت بتحقيق المسالك التي مر فيها الامير الجليل واضعا خريطة مفصلة للساحل الليبي معتمدا على ادق واوثق الخرائط الموجودة ، وكان قصدي من ذلك ان احتفظ للتاريخ بهذه المراكز التي كانت استراحات للسعي المقدس مـــن ، والى الحرميـــن الشريفين سيما وقد اصبحت ـ او كادت ـ منذ اليوم في خبـــر كان ، عندما طغت الباخرة والطائرة على الجادة المنجورة ...

ونظرا لما تركته هذه الزيارة من اثر على علاقات المغرب الخارجية فقد كانت مناسبة للحديث عن التماس امريكا وساطة المغرب بينها وبين ليبيا وعن السفارات الليبية للمغرب ايام السلطان سيدي محمد بن عبد الله ووجدت ان هذه فرصة للحديث عن مقام الامير المولى اليزيد بليبيا وعن تقارير السفارات الاجنبية حول هذا المقام .، ولما كانت تلك الزيارة مثارا لنشاط علمي وادبي فقد عرضت لأثرها على الحركة الثقافية بالبلاد ومـــا اعقب ذلك من ردود فعل هنا وهنالك وقد ختمت هذا بايراد النص الكامل لما حرره الكاتب الاسحاقي فيما يتعلق بالاراضي الليبية من راس اجدير الى السلوم ، واشفعت النص طبعا بتعاليق تكشف ما خفي منها وتعطي بعض الراي حول مضمونها .

* * *

لقد مر الركب الاميري ذهابا وايابا بسبع محافظات : محافظة الزاوية، وطرابلس ، والخمس ، ومصراتة ، وبنغازي ، والبيضاء ، ودرنـــة ... قطع زهاء الف وستمائة كيلومتر في نحو من احدى واربعين مرحلة بمعدل اربعين كيلومترا في الاربع والعشرين ساعة ... ولا بد ان نلاحظ هنا ـ للامتاع والمؤانسة ، الفرق بين رحلة مثل هذه يقوم بها امير واميرة ، ووزراء وسفراء ، رحلة يقوم بها المخزن او الحكومة وبين رحلة عادية ، مثل رحلة بعض السادة الاخرين من السابقين واللاحقين ... لقد كان في ابرز ما طبع كتب الرحالة الاخرين هو الشكوى الدائمة من المغيرين ، والخوف المستمر من الطوارىء المحتملة من تيه في الطريق ـ وانعدام للماء ، بينما كانـــت يومية الرحلة التي قام بها المخزن ، كانت في منتهى الدقة ولا توجد فيها

اثرا للتخوف ولا الشكوى . وكثيرا ما استوقف زيت مسلاتة ــ وهى من اطيب انواع الزيوت واحلاها ــ كثيرا ما استوقفت اسواقها ركب الحجاج الاخرين من أمثال ابي سالم العياشي لكن الركب المخزني كان منذ البداية يتوفر على الذخيرة والمؤونة اللازمتين لسفر طويل شاق ، وهكذا كان الحال عند الاياب فعوض ان يشغل الركب نفسه باقتنـــاء « الزعفـــران الطرابلسي » الذي عرف عند المغاربة بجودته وذكاء رائحته ، عوض ذلك اخذوا طريقهم تاركين الموضوع لمن يهمه امر الكسب والتجـــارة ، وفى طرابلس بالذات كان يختلف المقام الاميري عن مقام الرحالـــة الاخرين ، فبينما نجد هؤلاء يتحدثون ببساطة عن ازدحام الناس على الارحية للتزود بالدقيق ، وانتشارهم داخل المدينة للبحث عن القراب والحبال ، نجـــد الركب المخزني يتحدث عن زيارات المجاملة التي كانت تتم بين العلمـــاء والفقهاء ورجال الدولة ، وعن التنقلات التي كانت تتم لزيارة مبنى او اثر من الآثار ، لازمتني هذه الملاحظة طيلة مرافقتي للركب للاميري سواء فى طرابلس او سرت او صحراء برقة ، كنت تلاحظ الفرق الواضـــح بين تنقل زوار عبروا البلاد بصفتهم الشخصية وبين مسؤولين يمثلون هيبة الدول وقوتها وعظمتها ..

* * *

والمتتبع لمقرر الرحلة الاميرية لا بد ان ينصفه فى كثير من المعلومات التي قدمها عن هذه الزيارة والتي كانت تفوق ، من حيث كمها وكيفها ، ما عثرنا عليه فى بعض المصادر المغربية الاخرى سواء منها المخطوطـــة او المطبوعة ، وكذلك فانها تفوق دون شك ما وقفنا عليه لدى المؤرخيـــن الليبيين القدامى من امثال العلامة ابن غلبون ، كما انها تكشف عن جوانب ظلت المراجع البريطانية ، والايطالية التي كتبت عن تاريـــخ طرابلس ، ظلت فيها شحيحة واحيانا غامضة ...

ويتضح لنا ان الكاتب لم يكن ليجد متسعا من الوقت ليحرر رحلته وهو فى اثناء الطريق ، كما فعل بعض من سبقه من امثـــال العبـــدري والعياشي ، وانما كان يقتصر على تسجيل المهم مما كان يرى ، والمهم من

اسماء المواقع التي مر بها ، ودون ان يكلف نفسه كذلك عناء التاريخ لكل مرحلة ، الامر الذي سبب له بعض الاخطاء الاملائية في طائفة من الاسماء، وانا على يقين من انه لو كان يستطيع تدوين ملاحظاته في عين المكان لكانت رحلته امتع واتحف ، فقد كان عنده الكثير مما يقوله مثلا اثناء مقام نحو من نصف شهر في ضيافة البيت القره مانلي ، عند الذهاب والايـــاب .
ويلوح لي انه عندما عاد الى بلاده وطلب اليه السلطان مولاي عبد الله ان يقوم بمهمة تاليف الرحلة كان يعتمد في الدرجة الاولى ، وخاصة فيما يتعلق بليبيا ، على مصادر ثلاثة اولها كانت رحلة العبدري وثانيها كانت رحلـــة التيجاني والثالث رحلة العياشي وهكذا ظل مرتبطا بالثلاثة ارتباطا لم يحد عنه ، الامر الذي اوقعه احيانا في الخطأ عندما غفل مثلا عما ورد في بعض الرحلات وفي بعض المصادر التاريخية الاخرى . ومع كل ذلك فان الرحلة تعتبر في عداد النفائس التي تعطي فكرة جد واضحة عن تعلق بلاد المغرب بقبلتهم في المشرق مما قد يفسر القولة السائرة في المغرب « مكـــة في الشرق ورجالها في الغرب » .

* * *

ولا بد لي بعد هذا ان اقدم اعتذاراتي عما قد يلاحظ على ما كتبتـــه حول هذه الزيارة ، فقد تم ذلك في ظروف مزدحمة بالنسبة الي ، وكنت اجد في ركب الامير الجليل متفيئا ظليلا آوي اليه عندما اشعر بتعـــب او ارهاق ، كنت افضل ذلك على الركض وراء المسليات الاخرى « وللناس فيما يذهبون معاشق » او كما يقولون .

وبعد ، فهل الكتاب تقديم للمغرب او تقديم لليبيا ؟ كـــلا الامرين صحيح ، لكنه مع ذلك تعريف بتاريخ مجيد ، لكل واحد منـــا ـ كنا في المشرق او المغرب ـ الحق في الانتساب اليه والاعتزاز به .

د عبد الهادي التازي



الملك محمد الثالث الذي زار ليبيا وهو ولي للعهد سنتي 1143 ـ 1144 هـ (1731 ـ 1732 م) لقد كانت هذه الزيارة جسرا قويا من الجسور التي ربطت بين البلدين ، وكان لها آثار بعيدة المدى سواء على المحيط الدولي او الصعيد الوطنـــي .

في العلاقات المغربية الليبية

ان الظاهرة التى لا بد ان يلاحظها كل الذيــن اقاموا فى ليــبـــيا او سمعوا عن بيوتاتها ، هذا العدد العديد من الأسر المغربية التى تعيـــش هنا منذ التاريخ المبكر والتى امتزجت بأهل البلاد امتزاجا قويـــا من غير ما أن تنسى أن لها بالمغرب الاقصى جذورا عميقة . ويجب العلم بأن هناك فى ليبيا نواحى شاسعة تحمل برمتها اسم « المغاربة » (1) كما ان هناك مدنا كانت مأهولة جلها بأهل المغرب (2) كما توجد هناك عشائر تنتسب جميعها الى الاصل المغربى والحقيقة ان وجود افريقية ، وبرقة بمعناهما القديم — على طريق ركب الحاج فى الذهاب والاياب يعتبر السبب البارز لهذا الوجود ، فان اسلافنا — وهم متعلقون بالاماكن المقدسة التى اشعت عليهم بانوار الهداية — ظلوا على صلة مستمرة بتلك الديـــار فى مختلف العصور ،،، هناك عدد من الحجاج يتعذر عليهم ان يستانفوا طريقهم الى المغرب بعد ان تكون وسائلهم قد نفذت (3) وقد يعجز القاصد لمناســك

---

1) المنطقة المسماة « المغاربة » هي بداية برقة وتليها شرقا منطقة العواقيــر ، وقــد كان لهم معسكــر خاص بهم ايام النضال الوطنى الليبي

2) العياشي الرحلة ص 282

Jacques caille : A propos d'un document inédit de Moulay YAZID Hesp. 1959 P. 244-245

الحج وهو اثناء الطريق عن بلوغ متمناه فيرتـــاح الى المقام فى البـــلاد ، وقد يعجز احد من رفاته : زوجته الحامل مثلا ، فيودعها احدى العائلات الليبية ليجدها عندما يرجع ، وقد يدركه اجله وهو على منى او عرفـــات فيختفى ذكره وتضع زوجته مولودا تتجه اليه انظار المؤمنين على انــــه غريب ابن شهيد ، ويلتمس الناس البركة فى خدمته وتربيته ويصبح سيد القوم بعد حين ، الم ياتكم نبـــا جد قبيلـــة « البراعصـــة » الاشـــراف العلميين ، وهم يستوعبون اليوم مساحة جد مهمة فى صميـــم برقـــة ؟ الم ياتكم نبأ تنصيب امير على طرابلس سنة 541 هـ 1146 م كان مجـــرد عابر الى الحج من الملثمين المغاربة (1) ؟ ثم الم نقرا عن امـــارة محمد الفاسى على الفـــزان سنة 956 هـ 1549 م واستمرار هذه الامـــارة فى ذريته واسباطه زهاء ثلاثة قرون (2) ؟ عدد من الفقهاء اختاروا بعد اداء فريضة الحج ان يلبوا رغبة الطلاب هناك فانقطعوا لنشر العلم وعادوا من ابناء البلاد (3) . عـــدد من المجاهـــدين فضـــلوا ان يرابطـــوا على السواحل لتكون لهم مأثرة الدفاع عن الثغـــور مـــع اخوانهـــم ابنـــاء البلاد ،،، طائفة من العمال والصناع انتشروا فى طول البلاد وعرضها ،،

دولة المرابطين فى نجدة ليـــبـــيا

عندما يقال ان تدخل يوسف بن تاشفين فى الاندلس مدد فى عمـــر الاسلام بتلك الديار زهاء الستة قرون ، ينبغى حفظا لامانة التاريخ ان يقال ايضا الى جانب ذلك ان تدخل دولة المرابطين فى شرقى افريقيـــــة حافظ على الوجود الاسلامى بتلك الجهات والى الابد ،،،

لقد شعر امير طرابلس على بن يحيى بن زيـــرى 510 — 515 — (1116 — 1121) بمطامع روجى الاول فى بلاده فهـــدد بالاستـــنجاد بمراكش ، بالسلطان على بن يوسف بن تاشفين وكاتبه فعلا ، فكف حكام

---

(1) ابن غلبون : التذكار ، نشر الطاهر الزاوى طبعة ثانية ، ص 55 - 56
(2) المصدر السابق ص 143 - 147 - 156 محمـد سليمـان ايـوب - تاريـخ الفـزان ص 104 - 111
(3) العياشى الرحلـة 286

صقلية ، وتجدد الاستنجاد ايام ابنه الحسن بن على بن يحيى سنة 515 (1121) فتحرك الاسطول المرابطى بقيادة محمد بن ميمون (1) .

دولـــة الموحديـــن فى طـــرابلـــس

وعندما امست طرابلس تئن تحت نير روجى الثـــانى سنـــة 554 وعندما فرض هذا على قاضى المدينة ابى الحجاج ان ينـــال ، على منابر المساجد ، من دولة الموحدين ، اجتمع المسلمون كلمة واحدة ضد الخيانة وثاروا على الطاغية وبعثوا بسفيرهم ابى يحيى رافع بن مطروح التميمى على راس وفد هام يضم اعيان البلاد وقادتها الى الخليفة عبد المؤمـــن ابن على حيث اجتمعوا به فى افريقية طالبين منه العـــون والمـــؤازرة ، الامر الذى انقذهم من شبح الكفر وربقة الاستعمار لأمد طويـــل (2) .. وقد عاد رافع ابن مطروح ومعه — دون شـــك — طائفـــة من القـــادة والمساعدين المغاربة الذين اتخذوا من ليبيا وطنا ثانيا لهم ،،،

افتـــداء طرابلـــس من قبـــل بنـــى مريـــن

وعندما استباح الجنويون البلاد سنة 755 وعاثوا فيها سلبا ونهبـــا توسط ابو العباس احمد بن مكى صاحب قابس لافتدائها منهم ، لكنهـــم شرطوا عليه خمسين الف مثقال من الذهب العين ، وهنا بعث الى ملك المغرب السلطان ابـــى عنـــان بن ابى الحسن فبعـــث اليـــه العاهـــل المغربى بالمال كله وطلب اليه ان يرجع للناس ما كانوا اكتـــتبوا بـــه ، وذلك لينفرد بمثوبتها عند الله وذكرها بين العباد (3) .

---

(1) ابن غليون : التذكار ، تحقيق الزاوى ص 52 — 53

(2) ابن غليون : التذكار ، نشر الزاوى طبعة ثانية ص 56 — 57 — 58

(3) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس طبعة لبنان 836 — 837 ، ابن بطوطة (الترجمة الفرنسية) المجلد الرابع ص 350 — 351 العياشى: الرحلـة ، طبعـــة فـــاس الناصرى احمد : الرحلة طبعة فاس ص 60 . ابن غليون : التذكار ، نشر الزاوى ص 59 — 60 — 101

سفير جديد من طرابلس فى المغرب

ولا ينسى التاريخ سفارة العلامة الخروبى (وهو من ابناء القارقارش بضواحى طرابلس) الى المملكة المغربية ، لقد ورد علينا فى مرتين متواليتين سنة 959 هـ (1552 م) وسنة 961 هـ (1554 م) كان الخروبى فعلا من الجسور الهامة التى ربطت علاقات الود والاخاء بين البلدين ، وقد ترك له فى المغرب طائفة من التلامذة والمعجبين ، وكان والده من اخص تلامذة العلامة المغربى الشيخ زروق دفين مدينة مصراته (1) ..

ويرجع الفضل للعلامة التمجروتى سفير المنصور السعدى فى نقل صورة مدققة عن متاعب طرابلس اثناء الحكم العثمانى وفترة تولى يحيى بن يحيى السويدى ، وذلك اثناء مرور السفير بالعاصمة التى اعربت عن رغبتها فى التخلص من الظلم والجور (2) ..

المغاربة بجانب ليبيا ضد الغزو الثالث

وقد وقف المجاهدون المغاربة جنبا الى جنب مع اخوانهم الليبيين عندما حاصر الاسبان ثانية ساحل طرابلس عام 1096 (1684 — 1685) ونسوا — فى سبيل ذلك — طريقهم نحو الحج ، وكان ذلك فى بداية الدولة العلوية ايام السلطان المولى اسماعيل التى صادفت ولاية عبد الله الازميرلى على طرابلس من قبل السلطان محمد خان الرابع (3) .

وبعد استقلال ليبيا عن الآستانة

وبالرغم من الصلات القوية التى كانت تربط الدولة المغربية بالدولة العثمانية ، وبالرغم من ان هذه استجابت سنة 981 = 1573 لمطالب

---

(1) العباس بن ابراهيم : الاعلام فى تاريخ مراكش ص 150 — 251 — 252 الطاهر الزاوى : اعلام ليبيا ص 306 — 387
علي المصراتي لمحات ادبية عن ليبيا ص 43 — 44 — 48

(2) رحلة التمجروتى ص 72

(3) الناصرى احمد : الرحلة ، طبعة فاس ص 65 — 66 ابن غليون التذكار ص 176 — 187 ، النائب المنهل ص 273

الاميرة لالة عودة الوزكيتية والاميرين : عبد الملك واحمد السعديين (1) فان موقف المغرب ظل بعد استقلال القرمانليين عن الحكومة المركزية سنة 1123=1711 يتسم بطابع المسالمة والموالاة ، ذلك لان الباب العالي لم يقترح على اصدقائه موقفا معينا ازاء الحركة الانفصالية حتى بعد ان سمحت هذه الحركة لنفسها بعقد معاهدة على حدة مع بريطانيا العظمى سنة 1164=1751 دون الرجوع الى اسطامبول (2) .. هذا الى الوشائج التى كانت تربط بالبلاد الليبية باعتبارها بلدا شقيقا منذ القدم وباعتبارها المنفذ الطبيعي للمغاربة في اتجاههم نحو بلاد المشرق ، هناك حيث تحتاج الجالية المغربية الذاهبة والآتية لمن يرعى مصالحها ويزودها بما تحتاج اله في طريقها ، كما تحتاج لمن يستقبل كذلك ما تأتي به من انتاج مغربي . . .

وهكذا استمر الاتصال بين المسؤولين هنا وهناك على مر السنين وكثيرا ما نلاحظ تزايد فرص التلاقي في شعبان ورمضان وجمادى ، وقد اعتاد العاهل المغربي ان يبعث كل عام بالهدايا الثمينة الى امير طرابلس ، ولم يتخلف قط عن ذلك الا في فترة محدودة عندما اشاع احد سلاطين تركيا ان الامر يتعلق بجزية يدفعها المغرب .

وبصرف النظر عن الزيارات التى تمت في اطار الرحلة الى بيت الله سواء منها التى قام بها الامراء او العلماء مما خصصنا له فصلا على حدة ، فان هناك في تاريخ المغرب الدولي ومضات نرى من المناسب ان نستنير بها نظرا لما تحتويه من فائدة جلى على تاريخ العلاقات بين البلدين ، ونؤكد مرة اخرى على الزيارة التى قام بها ، الامير الجليل سيدي محمد بن السلطان المولى عبد الله بن السلطان المولى اسماعيل ، وذلك صحبة جدته الاميرة الوزيرة لالة خناثة ، هذه الزيارة التى نكتب هذه الورقات على شرفها ، لانها لم تقتصر فقط على مجرد زيارة اقتضتها

---

(1) الزياني : الروضة السليمانية محفوظ بالخزانة العامة تحت رقم 1275 الناصري الاستقصا طبعة دار الكتاب ، البيضاء جزء 5 ص 61 – 62 – 63

(2) النائب الانصاري : المنهل العذب ، الجزء الاول ص 311 ، رود لوميكاكي : طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي ، وتعريب طه فوزي ص 8 من الملحق ، طبع معهد الدراسات العربية العالية .

Simalî Afrikada Türkler (1934) : Aziz SAMIH (Istanbul)

مناسك الحج . ولكن تجاوزتها الى توطيد اواصر الاخاء بين البلدين ، فقد وجد الامير الصغير زملاء له بادلوه الحديث كما كان للاميرة اتصالات بأميرات قصر طرابلس .

هذا وبحكم الصلات التجارية والاخذ والعطاء بين العابرين والمقيمين فانه لا يخلو الحال من متابعات ومماحكات ، بيد انه فى كل مرة كان الحكام يعالجون الامر بما يناسب ، وعلى المستوى العالى ان اقتضى الحال ، وهكذا عندما كان يستهدف ركب الحاج لبعض المضايقات من طرف بعض العناصر الغير المسؤولة نرى العاهل المغربى يبعث باستفساراته واستدراكاته (1) . وهكذا ايضا عندما حمل بعض المغاربة معه الى طرابلس نسيجا مغشوشا وعملة زائفة على غير ما اعتادت البلاد شراءه من المغرب بادر الامير على القرمانلى الى الكتابة للسلطان المولى عبد الله سنة 1165=1752 الامر الذى استدعى فتح تحقيق دقيق من قبل السلطات المغربية للضرب على ايدى المتهاونين محافظة على نوعية الصادرات المغربية (2) .

وما فتئت الاسرة القرمانلية — وهى الحاكمة بالبلاد — تأخذ براى السلطان محمد بن عبد الله وخاصة فى ظروفها الصعبة مع الدول الاوربية ، وكان العاهل المغربى — وهو الذى تعرف على هذه الاسرة جيدا وما يزال ناعم الاظفار — يعبر عن رايه كما لم يتردد فى استمزاج رايها فى بعض القضايا التى تهم البلدين . وبما ان مبدا احترام التعهدات كان هو الشعار الذى طبع الدبلوماسية المغربية فقد كان محمد الثالث هذا اشعر امير طرابلس بخطورة عدم التقييد بالاتفاقيات مؤكدا فى الفصل السادس والتاسع من المعاهدة التى ابرمها مع فرنسا اواخر سنة 1180 (28 1767) انه سوف يسمح بمطاردات تقع على شواطىء المغرب بعد ان كان الباشا اكد فى صيف1766 لفرنسا انه لن يسمح اطلاقا لأى مغامر بمضايقة السفن الفرنسية (3) .

---

(1) تاريخ الضعيف ، محفوظ بالخزانة العامة تحت رقم 660 ص 145
(2) ابن زيدان ، الاتحاف ، الرابع ص 462
(3) ابن زيدان ، الاتحاف 1 — 266
Jacques caillé : les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdellah P. 189
رود لفوميكاكي : طرابلس الغرب ، ص 96 — 97

وقد شهدت ليبيا خريف 1182 (1768) موكب زفـاف اميـرتين مغربيتين لالة لبابة التى زفت للشريف سرور امير مكة واختها الصغرى لالة حبيبة التى زفت لنجل الشريف ، كانتا ابنتين للسلطان محمد بـن عبد الله الذى عرفته ليبيا من ذى قبل ، وكان يرافق الركب اخواهمـا الاميران مولاى على ومولاى عبد السلام اللذان حملا هدايا سنية لامير طرابلس على القرمنلى (1) .

وقد وجد الامير المولى اليزيـد خلال الفترات التى تردد فيهـا على ليبيا منذ رمضان 1193 — (1779) (2) ، وجد فيها الوطن الثانى الذى آواه فى فترات ازمات طموحه . وكانت ابرز بادرة عبر بها الامير الشاب عما احتفظ به نحو ليبيا من ذكريات جميلة انه اقترن سنة 1201 — 1202

---

(1) مولاى عبد السلام : درة السلوك وريحانة العلماء والملوك ، المكتبة الملكيـة تحت رقم 1841 ص 230 ، الزياني : الروضة ، مخطوط بالخزانة العامـة تحت رقم 1275 ، الناصرى : الاستقصا طبعة البيضاء المجلد 8و34 ، ريتشارد توللي : عشر سنوات فى بلاد طرابلس ص 372 .
ادريس العلوى: الدرر البهية والجواهر النبوية فى الفروع الحسنية والحسينية طبعة فاس ص 169 ، المدني ابي الحسنى ترجمة محمد بن عبـد اللـه ، مقدمـة كتـاب الفتوحات الالاهيـة .

(2) لقد آلرت تسجيل هذا التاريخ الذى ضبط وجود المولى يزيد فى طرابلس لاول مرة وذلك لأسد فراغا شعرت به فى سائر المصادر المغربية وكذلك المصادر الاخرى التـى كتبت حول هذا الامير ، ذلك انهم جميعا اطبقـوا بمـا فيهـم الزيانـي فى الروضـة السليمانية ، والضعيف فى تاريخه والناصرى فى كتاب الاستقصا ، اطبقوا علـى ان المولى يزيد انما ابتدا حجه عام 1198 (1784) مع ان الذى حصل ان الامير يزيد كان بطرابلس منذ سنة 1193 ـ 1779 فقد وجدت له رسالة له محررة بطرابلس مختومة بطابعه مؤرخة بـ 17 رمضان 1193 (18 سبتمبر 1779) فى موضوع نقل مائـة مـن الحجاج على ظهر مركب تابع لدوبرونيك (يوغوسلافيا) من طرابلس للمغرب ...

- الزياني : الروضة مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 175 صفحة 125
- الضعيف : التاريخ مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 679
- الناصري : الاستقصا طبعة البيضاء 8 ـ 45

NARRATIVE of a ten year's residence in Trypoli in Africa londes 18 16 traduit in Français par Mac Cartlry sous le Titre :
voyage à Trypoli, relation d'un séjour de dix années. Paris 18 19 Vol. 2 traduit en arabe par ABU HAJALA

(1787) بالسيدة حفصة كريمة زعيم كبير من اولاد سليمان ، ذلك سيف النصر الذى يحتفظ له تاريخ ليبيا بنصيب وافر (1) .

واعترافا بالجميل الذى كانت تقدمه ليبيا للحجاج عندما يصطدمون ببعض المصاعب (2) ، وتقديرا من المغرب لمواساة ليبيا عندما هدده الجفاف سنة 1190=1776 حيث وصلت من طرابلس شحنات مهمة ازالت الخوف عن سكان المغرب (3) . فقد بعثت المملكة المغربية — عندما اصابت

---

(1) تنتمى هذه الاسرة الى اصول عربية عريقة ، فهم ينحدرون من بني سليم الذين دخلوا افريقية مع بني هلال سنة 442 ، وبنو سليم هؤلاء كانت منهم قبيلة اولاد سليمان وكانت رياستهم فى ولد نصر ، ولهذا يعرفون باولاد سيف النصر ، وهم بنو عمومة لاسرة الجبالي ، وكانت بين اولاد سيف النصر وبين اولاد الجبالي حروب كثيرة بسبب تنازع السلطة فى منطقة سرت ، وقد تحدث الرحالة العياشي عما صادفه من حروب بينهم ، كانت الايام فيها دولا بين النصريين والجباليين ، وقد انجد حاكم طرابلس عثمان باشا الساكسلي الجبابلة على اولاد سليمان بينما استنجد هؤلاء بقبائل مجاورة واخيرا صفت الناحية لآل سيف النصر فى سرت ، ابن غلبون ، التذكار ص 240 — 247

ميس توللي : عشر سنوات فى طرابلس ص 370 — 374 : احمد الفاسي : الرحلة الى بيت الله (مخطوط) فى حوزة الاستاذ محمد العابد الفاسي محافظ الخزانة الكبرى بجامعة القرويين : فاس ، الضعيف : مخطوط بالخزانة العامة رقم 669 ص 473 ،انظر نص الرسالة من سيف النصر للسيد محمد شبلي الملقب ببيت المال فى كتاب ميكاكي .

الزاوى : اعلام ليبيا ص 320 الحشائشي : الرحلة ، تحقيق علي مصطفى المصراتي ص 173 — 138

(2) نشير بصفة خاصة للتصرف الذى قامت به باخرة تابعة لجمهورية دوبرونيك او (Raguse) حيث تخلت عن عدد من المغاربة فى مرسى طرابلس ، وقد كان الشرط ان تصل بهم الى الشواطىء المغربية الامر الذى استدعى من السلطان محمد بن عبد الله اصدار تصريح وزعه على دول البحر الابيض المتوسط بتاريخ 6 جمادى الاولى 1194 (10 ماية 1780) يشهر فيه الحرب على دوبرونيك (Raguse) وينذر فيه الدول الاخرى بنفس الموقف ان هي ناصرت (راكوس) ...

Jacques Caille : les accords internationaux du sultan Sidi Mohammed A propos d'un document inédit deBen Abdellah 1960 page 242-288. Moulay Yazid.
Hes, 1959 P. 939 Abdelhadi Tazi : Moroccan American Relations 1967 P. 7.

(3) ابن زيدان : الاتحاف المجلد الثالث 320 — 326 المدني ابن الحسني : ترجمة محمد بن عبد الله ، (الفتوحات الالاهية .

خطاب الامير المولى يزيد من طرابلس حول سفينة (دوبرونيك)
التي نقلت الحجاج المغاربة

الحمد لله وحده   ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

يصل خديمنا القايد محمد بن عبد المالك هذا الكاغيد بامرك
تجمع عليه قونصوا دانمرك وقونصوا السويد و قونصوا الفلامنك
وقونصوا البلنسيان وغيرهم من القونصوات واقراه عليهم وهو
ان من يوم توجه من عندنا احمد خوجه الدار البيضا بقصد وسق
الزرع امرناه بشرا الزرع وتوجيهه لطرابلس ويعلم هذا القونصوات
وغيرهم من النصارى المتسببين وكم من مرة كتبنا لهم هذا واعلمناهم
به واسترعينا عليهم حتى عرفوه وعلموه من ان كل سفينة حملت
الزرع من الدار البيضا وتوجهت به لطرابلس وانزلته بموضع اخر بقصد
البيع فانها تغرم الصاكه والرايس هو ظامنها وما كانت تشرع في وسق
حتى كانوا يقولون لهم العدول والامنا هذا القول ثم ان روسا الاجناس
الذين حملوا هذا الزرع اتفقوا مع احمد خوجه على ذلك وباعوا الزرع
بمالقه غشا منهم وصح بقد كان من حقهم حيث راود هم احمد
خوجه على ذلك وعلموا الخيانة فيه لم يساعدوه لذلك ويقولون له
لا نفعل من هذا شيا ولا نتحدث به لانا رددناه من امام عدول المرسى

ظهير للسلطان سيدي محمد بن عبد الله فى شان السفينة المحملة بالقمح الى ليبيا

بالاستدعا على اننا ننزلوه بطرابلس وان فعلنا هذا الفعل نخاف على
انفسنا والعقوبة تلزمنا من كرطنا ويقع من ذلك تخسير الخواطر و
نكون نحن السبب في ذلك فحين سمع منهم احمد خوجه هذا الكلام
لا يجد يفعل لما اراده سبيلا وحيث وجد من وافقه واسعفه الخيانة
فعل ما فعل ومن اجل ذلك حيث تقدم الاستدعا عليهم ووقع ما
ذكرنا يجب عليهم خلاص حاكة الزرع لان هذا الفعل هو فعل قبيح وهو ما
يجب عليه ومن اجله الكلام بطريق الهادنة وان استعذروا انهم
انزلوا الزرع بمالفه لاجل يقبضون كرائهم فهذا غدر واضح ولا يقبل
منهم لانهم كان من حقهم يوصلون الزرع لطرابلس ويبقون مرسيين
بالمرسة ويتكلمون مع قونصواتهم الذين هم بطرابلس ويقولون لهم
اننا اوسقنا الزرع من مرسة سيدنا من الدار البيضا بقصد وصوله لهذا
ان احمد خوجه اراد يحجر علينا نزوله بمالفه ولم نسعفه نزوله بها وها
نحن اتينا به ولنكمل الكلام المشهود علينا بالدار البيضا فحين
يسمع هذا الكلام صاحب طرابلس يعطيهم الكرا ويلزمهم غاية الادراك
ولا ينزل من عندهم حتى يخلصهم ثم انهم لما راوا الطمع وسخاء صاحبهم في
الكرا من غير وصول للموضع الذي هم مكترين له وظنوا اني لا انحتهم
في هذا فعلوا ما ارادوا ومن اجل ذلك فاني لا اترك حاكة الزرع بل نخلصه
فيها منهم ان شا الله والسلام في 16 رجب الفرد الحرام عام 1201

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

من عبد ربه تعالى وخديم سيدنا نصره الله محمد بن العربي اديبج
وفقه الله الى كبراء ابناء جنسهم جميع الفرنصوات الذين هم بثغر
تحية السلام على من اتبع الهدى وبعد فاعلموا ان قبل هذه الجمعة
وصلوا لسيدنا نصره الله مكاتب من عند خديمه القايد محمد بن عبد
المالك يخبر سيدنا بامر رؤسا الاجناس الذين حملوا الزرع لاجل
خوجه من الدار البيضا وهو يعتذر عليهم لسيدنا نصره الله وعرض
لسيدنا كلامه واعجبه غاية وقبل منه ما اعتذر به على الرؤسا المذكورين
وسالني سيدي عن ذلك فاخبرته بالخبر اليقين بما كان اهلين
به خديم سيدنا القايد محمد بن عبد المالك وفي الحين كتب
لكم سيدنا ايده الله ما يطلع صحبة حامله طاجنا الوارد عليكم
وكتب لخديمه المذكور وسيدنا ايده الله يذكر لكم انه تجاوز
عن وصايكم ولا بينه وبين اجناسكم الا الخير والمهادنة
وهذا ما نعلمكم به والسلام في 20 شعبان المبارك عام 1201
[illegible] 2e Juny 1787

خطاب محمد بن العربي حول السفينة الموجهة الى طرابلس

السنون ليبيا — بمراكب مشحونة بالقمح ، وعندما سطت نابولى على بعض المراكب نظرا للحرب القائمة بينها وبين باشا طرابلس — بعث العاهل المغربى سفارة الى نابولى عهد اليها ايضا بافتكاك المركب وارساله على جناح السرعة لطرابلس . ومن الصدف ان تقترن ايام اتجاه هذا المركب نحو ليبيا بايام مر فيها الاسرى المسلمون الذين افتداهم السلطان محمد بن عبد الله بمرسى ابن غازى ومرسى طرابلس حيث استقبلوا من طرف الرجال جميعا بالتكريم ، ومن النساء بالزغاريد ومن الاطفال بالدعاء لملك المغرب . وقد كان وجود البعثة المغربية برئاسة السفير ابن عثمان ، فى مملكة نابولى فرصة بتاريخ 11 قعدة 1196 (18 اكتوبر 1872) لحدث هام سجله تاريخ العلاقات بين البلدين واعنى بذلك طلب فرنانده ملك نابولى وصقلية من السفير المغربى ان يرفع طلبه للسلطان محمد بن عبد الله بالتوسط بين امراء طرابلس ونابولى من اجل ان تعود العلاقات بين البلدين الى سابق عهدها وان يتبادل سراح الاسرى بين الطرفين (1) .

وقد سجل التاريخ على صفحاته اسم السيد احمد الخوجة الذى راح سفيرا للباشا على القرمانلى لدى السلطان محمد الثالث سنة 1201 (1787) . وبالرغم من ان المصادر التاريخية تظل متكتمة لموضوع المهمة التى تنقل من اجلها السفير من طرابلس للمغرب فان المراسلات الدبلوماسية المحفوظة فى ارشيفات فينا تدل على انه راح للاستنجاد بالمغرب حتى يعده بالمواد الضرورية ، فان تلك البلاد تعرضت فى هذا التاريخ لقحط عنيف ، هذا الى طلب المدد العسكرى لأن الدول الاوربية ما فتئت تترقب ضعف الباشا لتيزل ضرباتها بطرابلس . وقد نجحت السفارة واسعفت ليبيا بما تقتضيه اواصر القربى (2) . لقد وصلت لطرابلس ثلاث شحنات من القمح ، كما اهدى السلطان محمد بن عبد

---

(1) ابن زيدان : الاتحاف المجلد الخامس ص 320 ، 326
Caille : les accords internationaux du sultan Sidi Mohamed P. 242.
(2) ريتشارد توللي : عشر سنوات فى بلاد طرابلس ، تعريب ابي حجلة ص 56
رود لفوكاكي : طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي ص 109 — التازى : تاريخ المغرب الدبلوماسي



ورد السفير العميد الحاج عبد الرحمن اغا مبعوثا من أمير ليبيا علي القرەمانلي لعاهل المغرب الملك محمد الثالث ليشكره على المساعي الحميدة التي قام بها المغرب ، وقد أقيمت للعميد آغا مأدبة غذاء كبرى بمدينـــة مراكش في منتصف رجب من عـــام 1204 هـ ــ ربيع 1790 م

الله للباشا سرجا مرصعا بالجواهر مع ركابين من الذهب تساوى عشرة آلاف بوطاق (حوالى السبعة آلاف جنيه (1) .

* * *

وما ان اخذت بوادر الازمة تلوح بين امريكا من جهة وبين ليبيا من جهة ثانية حتى بادرت المملكة المغربية بمساعيها الحميدة من اجل تجنب الحرب وكان ذلك بناء على ملتمس تقدمت به الولايات المتحدة الامريكية بواسطة اسبانيا ، وقد شهد التاريخ بنجاح السفارة واستطاعت الدبلوماسية المغربية ان تجنب الاصطدام ردحا من الزمن بعد ان كانت نار الحرب على وشك ان تلتهب (2) .

ومن المهم ان نعيد الى الذاكرة ان هذه هى الوساطة الثانية التى يقوم بها المغرب لدى امراء ليبيا ، لقد كانت الاولى — كما سبق القول — بطلب من نابولى ، وهذه تطلب من واشنطن ، وانا على مثل اليقين من ان هناك وساطات اخرى طلبت الى المغرب من فرنسا وبريطنيا واسبانيا .

وقد وجد هذا المسعى من المغرب صدى طيبا لدى طرابلس وهكذا قرر الباشا ان يبعث بسفارة مهمة تشرح للعاهل المغربى ظروف ليبيا وقد كان على راسها الدبلوماسى الشهير العميد الحاج عبد الرحمن آغا الذى صحبته عدة شخصيات كان من بينها صهر السفير وبعض الرؤساء البحريين الطرابلسيين . وقد شاهد القصر الملكى بمدينة مراكش مأدبة غذاء فاخرة اقامها السلطان محمد بن عبد الله على شرف السفير الحاج عبد الرحمن وحاشيته وقد زوده العاهل المغربى بساعة ثمينة ملبسة بالجواهر المرصعة وسبعة من الجياد من اكرم الخيل وسروج غالية واسلحة متنوعة وكميات كبيرة من شحنات القمح (1) .

---

(1) وصفت ذلك شاهدة عيان هي المس توللي سكرتيرة القنصلية البريطانية على ذلك العهد فى رسالتها بتاريخ 24 شتنبر 1784 انظر ريتشارد توللي ص 131 — 161 — 167 168 .

Tazi : Maroccan Americain relation printed in Maroco 26-7-67 Page 15.

(2) مس توللي — عشر سنوات فى بد طرابلس ص 534

ابن زيدان — الاتحاف 1 — 266

Caille : Page 20

وقد كان ارتفاع عدد الجالية المغربية فى بداية ايام السلطان المولى سليمان ، وعلى سبيل التحديد عام 1210 (1795) ، كان ذلك باعثا على تعيين « وكيل » يعنى بمصالح المغاربة هناك ، وتحتفظ احد ازقة طرابلس المدينة القديمة باسم الشيخ الريفى الذى تولى ادارة هذه القنصلية بادىء الامر والذى خلف فى ليبيا ذرية لها اعقاب الى الآن ، ثم كان الحاج مبارك السباعى ثم الحاج محمد العيساوى ثم عبد السلام حسان (28) .

---

28) توجد فى دار الاثار فى طرابلس عدة رسوم تحتاج لدراسة عميقة فيها ما كتب بالعربية وفيها ما كتب بالتركية ساعدني على استجلائها كل من الاستاذ بهجت القرمنلي والاستاذ محمد الاسطى ، فهناك عشرات الوثائق الخاصة بالمغاربة سواء منهم المقيمون او العابرون ويلاحظ ان اغلبها سجل ايام مرور ركب الحاج ذهابا او ايابا ... هنا وثيقة ترجع لتاريخ 29 شعبان 1146 أيام السلطان مولاى اسماعيل (9 شتنبر 1714) : ادعاء الحاج على بادو ، انه دفع للحاج عبد الرحمن بن زاكور مائتين اثنتين مثقالا فضة بحضور شيخ الركب الحاج عزوز والحاج الشاوى ... وهنا وثيقة تشهد أن التاجر احمد بن الحاج على التازى اشترى ثمانية قناطير سمنا من الشيخ صالح العاقورى (نسبة الى العواقير قبيلة مشهورة ببرقة) وذلك بمبلغ اثنين وسبعين ريالا فراملا سكة الوقت ، والوثيقة بتاريخ آواخر ربيع الآخر عام 1138 (1726) ... وهنا وثيقة زواج الحاج محمد السباعي باليتيمة المهملة الحاجة فاطمة التطوانية بصداق قدر معجلة عشرون محبوبا اسلامبوليا ومؤجله ثلاثون وقد شهد على الزواج الشريف الحاج محمد العلمي البلافجي حرفة ، من ذرية مولاى عبد السلام وقد ارخ الصداق فى شهر شعبان عام 1270 (1854) ، وهنا وثيقة طريفة ترجع لتاريخ 24 حجة 1285 أيام السلطان محمد بن عبد الرحمن عبارة عن احتجاج صارخ موقع من لدن واحد واربعين مغربيا منهم الريفي والسوسي والسلاوي والزمراني والشرادى والوذي والشياظمي والسرغيني والحياني والحريزى والدادسي والدراوى والحيحي والنتيفي والطنجاوى والفيلالي الخ ... الاحتجاج مرفوع الى سعادة متصرف لواء بنغازى وكانت بنغازى وقتئذ لواء مستقلا تابعا لوزارة الداخلية ـ بالاستانة ـ احتجاج ضد تدخل القنصل الفرنسي فى شؤونهم ... « نحن ـ يقول المغاربة ـ من رعايا دولة مولانا السلطان سيدى محمد وهي دولة اسلامية ولما خرجنا من حكومته صرنا الآن مستظلين تحت ظلال الدولة العلية ... ومنذ يومين وقعت عركة بين اثنين مغاربة فاتاهم واحد يخدم مع الدولة الفرنساوية هنا ورفعهم الى القنصل ... ومقصوده ان يحكم فينا كما فى رعاياه والحال انه ليس له يد علينا ولا يحكم فينا ولا فى بلادنا ولا نرضى ... نطلب منكم ان تنقدونا من هذه البدعة وان تكونوا مثل الحالة السابقة ... » هذا الى وثائق اخرى تتعلق برعاية امريكا لمصالح بعض المغاربة عندما ضعفت السلطة فى يد الولاة الاتراك بحيث لم يعودوا قادرين على حماية الجالية المغربية وكان القنصل الامريكي وقتئذ ميشيل فيدال ـ العلاقات المغربية الامريكية ـ مجلة تطوان المجلد الثامن سنة 1963 ص 179 ـ 180 ـ 181 ـ 182

Tazi : Moroccan American Relation Page 23.

بالمعروض لدى سعادتلو متصرف لوا بنغازي دامت معاليه

شكوى المواطنين المغاربة الى متصرف طرابلس ضد تدخل فرنسا في شؤونهم

وقد تجلى التضامن المغربى الليبى فى ابهى مظاهره عندما نشبت الحرب بين امريكا وايبيا فى مطلع القرن التاسع عشر . ان المغرب بحكم ارتباطه بولاة طرابلس تقدم لمديد المعونة ليوسف القرمنلى . بالرغم من المعاهدة التى تربط بين المغرب وامريكا منذ فاتح رمضان 1002 (28 يونيه 1786) (1) . وهكذا اصر المغرب على عون ليبيا ، وصدرت الاوامر الى السفينة المغربية « مبروكة » بقيادة الرايس ابراهيم لوباريس ، وقد اشتبكت فعلا السفينة « مبروكة » بالسفينة الامريكية فيلادلفيا قبل ان تستسلم فى طرابلس . وسافر السلطان المولى سليمان لطنجة خصيصا لتتبع الحالة (2) .

* * *

وفى اواسط سنة 1212 ، (اواخر 1797) نجد بالمغرب سفيرا جديدا من باشا طرابلس يشرف بنفسه على وسق مركب بكامله مشحون بالحبوب ، وقد عهد السلطان المولى سليمان لباخرة تابعة لجمهورية دوبرونيك بنقل السفير من ميناء طنجة الى طرابلس كما يؤخذ من رسالة رسمية تحمل تاريخ 16 جمادى الثانية 1212 (6 — 12 — 1797) وتتعهد لقابهان المركب بأداء الكراء والمصاريف (3) .

---

(1) نص البند الثاني من المعاهدة على ان لا يحالف طرف عدو الطرف الاخر لكن المغرب كان يعتمد على البند السادس الذى يتضمن اشعارا صريحا بان المسلمين اينما كانوا — ولو من غير ايالته — يعتبرون فى حالة سلم دائم وصلح مستمر مع الايالة المغربية ...وقد احتج المستر جيمس سيمبسون قنصل امريكا فى طنجة ، بيد ان جواب المغرب كان يتلخص فى ان المراكب المغربية لا تحتوى الا على هدايا ومواد غير ستراتيجية ... وقد هدد المغرب امريكا باشهار الحرب عليها اذا لم تتفهم الوضع ، ولولا تدخل الرئيس الامريكي ماديسى MADISON بنفسه ، لاندلعت نار الحرب ايضا بين امريكا والمغرب ... عبد الهادى التازى — العلاقات المغربية الامريكية النص العربي ص 10 — 11

(2) تاريخ الضعيف ، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 669 ص 424 — 427
رود لفوميكاكي : طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي ص 158
Abdelhadi Tazi : Maroccan American Relations Page 18
ابن تاويت : اول معاهدة صداقة بين المغرب وامريكا ، مجلة تطوان المجلد الثالث والرابع 1958 — 1959 ص 209 — 210 211

(3) عبد الهادى التازى : تاريخ المغرب الدبلوماسى (قسم المغرب دوبرونيك)

وعندما حاول الاسطول الروسى ان يجد له مجالا فى البحر الابيض المتوسط سنة 1222 (1807 — 1808) تعاون السلطان المولى سليمان مع طرابلس ارضاء لرغبة السلطان مصطفى خان الرابع الذى كان التمس من العاهل المغربى ان يمنع المراكب الروسية من الوصول الى البوغاز (1) .

* * *

لكن ما يلفت النظر حقا فى احداث شعبان 1226 (12 شتنبر 1811) هو الحدث السعيد الذى تجدد للمرة الثانية فى تاريخ العلاقات بين البلدين ، ذلك مصاهرة السلطان المولى سليمان مع ايبيا ، وفى هذه المرة جرت احتفالات الزفاف رسمية وشهدتها طرابلس ، كما شهدتها مدينة فاس ، لقد اراد السلطان مولاى سليمان مواساة اسرة سيف النصر بعد حوادث 1225 (1810 — 1811) ، نعم ووصلت بنت الزعيم ، سيف النصر ، اخت السيدة التى كانت بالامس فى عصمة المولى اليزيد ، وقد وجه معها يوسف القرمانلى جوارى موسيقيات يعزفن على الآلة ، وورد معها عشرة من اعيان طرابلس واثنان من كبار الفقهاء ، وكان النزول بمدينة العرائش حيث وجدوا وفدا مغربيا مهما فى استقبال الضيوف ، وقد اغدق السلطان المولى سليمان على كل الوافدين بعطايا ووجه لامير طرابلس قطعة من الاسطول المغربى هدية واصدر امره لمهندسه المعلم الحسن السودانى بتخطيط قصر فخم لسكنى الاميرة (2) .

* * *

---

(1) ابو القاسم الزياني : الروضة السليمانية مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 1275 وزارة الشؤون الخارجية المغربية ـ تاريخ الوجود الروسي فى البحر الابيض المتوسط ص 10 وثيقة القسم الصحفي بتاريخ 11 نوفمبر 1968

(2) تاريخ الضعيف ، مخطوط تحت رقم 669 ص473 ـ 474
احمد الفاسي ، الرحلة الى بيت الله ، مخطوط فى ملك الاستاذ العابد الفاسي
المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، الاول ص 332 ـ 362 ـ 364 رود لفوميكاكي ، طرابلس الغرب ص 91 من الملحق 0
الحشائشي : الرحلة ـ تحقيق علي مصطفى المصراتي ص 137 .

وقد زاد ذلك التعاون ، ونمت هذه المصاهرة من توثيق وشائج اللقاء بين البلدين ، وهكذا ارسل يوسف القره مانلي ببعثة كان على رأسها ــ فيما يعتقد ــ سفير عالم من ذرية سيدى عبد السلام الاسمر ضجيع مدينة زليطن وذلك لرفع هدايا سنية للسلطان المولى سليمان كما ارسل بمبعوث ثان وثالث ، وقد احاطت تلك البعثات العاهل المغربى علما بحالة الجفاف التى اصابت البلاد فى بعض السنين ولا شك ان الوفود الليبية رجعت تحمل معها هدايا من خيار الافراس لابى يعقوب يوسف وفيها ما كان موجها لنجله الامير على ، هذا طبعا الى كل ما استطاع المغرب تقديمه من نجدات كما تكشف عن ذلك الرسائل المتبادلة بين الاسرتين (1) .

* * *

وتاتى بعد كل هذا فترة استقبلت فيها جامعة القرويين من فاس شبابا تعاطى فيها العلم واسهم فى بث العلم والفضيلة بتلك الديار .

---

(1) كناشة الامير المولى عبد السلام بن السلطان المولى سليمان ، المكتبة الملكية رقم 4001 ، كناشة السيد العربى الدمناتي ، المكتبة الملكية تحت رقم 3718 ، محمد المنوني ، ثلاث رسائل من المغرب الى ليبيا ، دعوة الحق عدد مارس 1969 ص 43 ــ 44

3) راجع نص الخطاب الذى القاه سفير المملكة المغربية بالمملكة الليبية بمناسبة العيد الوطنى 3 مارس 1968 ، وقد نشر بسائر الصحف الليبية ليوم 3 و 4 مارس : العلم ، الرائد ، الحقيقة ، الامة Daily Nwes جريدة الانباء المغربية 7 مارس 1968

ليبيا لدى الرحالة المغاربة

لا يمكن ان نغفل عن النصيب الهام الذى تستاثر به الرحلات المغربية من تاريخ وجغرافية ليبيا . ان هناك عشرات من الرحالة المغاربة دونوا مذكراتهم عن مقامهم بتلك الديار — وهى — ولو انها مما لم يظهر جميعه — لحد الآن — لكن المكتبة المغربية تتوفر على طائفة منها مهمة ، الامر الذى يقدم لنا معلومات طريفة عن طبيعة البلاد وامرائها ، وقادتها وعلمائها وفقهائها ، سواء عند ذهاب الرحالة او ايابهم .

فهذا الامام ابن العربى سفير يوسف بن تاشفين سنة 485 هـ = (1092 — 1093) م الى المستظهر بالله فى بغداد « يعظم عليه البحر بزوله ويغرقه فى هوله » فينتهى الى برقة حيث ينزل ضيفا مكرما — مع ابنه — على امير بنى كعب بن سليم حيث يمضى وقتا فى التسلية يلعب الشطرنج فى انتظار تصليح مركبه (1) .

---

(1) تعتبر رحلة ابن العربي من اهم ما يتوق الباحثون للوقوف عليها نظرا لما يتوقعونه فيهامن لطائف وطرائف . ويوجد مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 1020 يظهر انه ملخص لكتاب الرحلة ، وقد قرات فى رحلة ابن عبد السلام الناصرى الكبرى المصورة بنفس المكتبة تحت رقم 2651 ص 160 ان حفيدا لابن عبد الصادق راى رحلة ابن العربي بتونس . المقري : نفح الطيب ، تحقيق د. احسان عباس ، 2 ر 39 ابن غلبون : التذكار نشر الزاوي طبعة ثانية ص 77 . ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن نشر عبد الهادي التازي طبعة بيروت 1964 ص 258 — 259 . تاريخ المغرب الدبلوماسي : قسم المرابطين ...

وهذا ابن رشيد الذى الم بطرابلس سنة 685 (1286 — 1287) فردد اصداء البلاد وقدم لنا فى رحلته الفريدة صورة صادقة لمـــا شاهده — على الاقل — فى ميدان النشاط العلمى (1) .

وهذا العبدرى « الدليل الازرق » لكل الرواد والرحالة ر كان اول رحالة مسلم يصف قوس ماركوس اوريليوس الذى شيد منذ سنة 163 ب . م بطرابلس وقد قدم لنـــا تحقيقات عن جغرافية ليبـيا وآثـــارها القديمة ، وعن حالتها العلمية عندما وصلها سنة 689 (1290 — 1291) فى اعقاب حصار اسطول ملك اراغون لطرابلس . ويذكى بما كتبـــه عن نشاطها العلمى اقلام الادباء والمؤرخين فى المغرب وفى ليبيا (2) .

وهذا ابن بطوطة السفير المتنقل للسلطان ابن عنـــان يحكى سنـــة 726 (1325 — 1326) عن طرابلس ومسلاته ومصراته وقصور سرت بل وعن اعراسه وولائمه فى الجبل الاخضر (3) .

---

(1) رحلة ابن رشيد بعنوان « ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهـة مكة وطيبة » وتوجد منها مجلدات فى مكتبة الاسكوريال على مقربة من مدريد ... ويستعد لنشرها اليوم الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بتونس .
ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس ، طبعة حجرية ، ص 180 — 182 — العباس ابن ابراهيم : تاريخ مراكش ثالث ص 250 محمد الفاسي : الرحالة المغاربة وآثارهم دعوة الحق عدد نوفمبر 1958 .

(2) توجد عدة نسخ محفوظة من الرحلة المغربية للعبدرى ، منها فى المكتبة الملكية فيما اطلعت عليه نسخة رقم 1351 ونسخة رقم 6594 ، وقد عنى بها المستشرقون وكان ممن تحدث عنها منهم شيربونو . وقد نشر بعضها الاستاذ ابن جدو (كلية الآداب الجزائرية) ، لكنها ظهرت حديثا بتحقيق وتقديم الاستاذ محمد الفاسي ضمن سلسلـة الرحـــلات التي تنشرها (جامعة محمد الخامس) ص 82 . ابن القاضي : الجذوة ص 179 .
— سلفاتورى اوركيما : البيان 13 للاكاديميا الملكية الايطالية (قوس ماركو اوريليو ...) دار الآثار بطرابلس

CHERBONNEAU :
Notice et extraits du Voyage d'El Abdary
Journal Asiatique (Cinquième Série)
Tome IV ; 18 45 Page 144-176

(3) فى نسخ ابن بطوطة أن ذلك تم فى قصر الزعافية ونقل انه تحريف للقصر الصعافيـة الذي يقع فى الجبل الاخضر والذى ورد ذكره في رحلة العبدرى .

Voyages d'Tbn Batouta, Traduit Par Defrémery et Sanquinetti
Tome I Page 26

وهذا خالد البلوى الذى غدر به مركبه على ساحل ليـبيـا ، ثم خذلته قرقورته على مرسى طبرق سنة 738 (1337 — 1338) يترك لنا انطباعاته عن الظروف الصعبة التى عاشها هنا وهناك (1) .

يا ليلة جمعت بمرسى طبرق وجمعـت بين مغرب ومشرق
الفت بين مفرق ومجمـــع اجلى صباحك عن نوى وتفرق

وبعد البلوى يقوم العلامة التمجروتى احد سفراء المنصور السعدى الى السلطان مراد الثالث بزيارة طرابلس فى ذى القعدة من عام 998 — 1590 فيؤدى معلومات قيمة عن المدينة التى اقام فيها شهرا واثنى عشر يوما . وكان شأنه ذلك عند العودة فى العالم الموالي (2) .

وهذا الشيخ السراج الذى فضل ان يجعـل طريقه عـام 1040 (1630 — 1631) على الصحراء الليبية فاخترقها من سردلس وزار اوبارى وقصر جرمة ، واقام بقلعة مرزق حيث اجتمع بسيد الفزان : جهيم من ذرية السلطان محمد الفاسى ثم مر بقصر تراغن حيث اجتمـع بالعلامة عمر بن تامر التراغنى ثم زويلة وقصر تمسة وبلاد (الفقهاء) ثم زلة التى تعتمد على شراب اللاكبى ثم اوجلة .. معلومات عن الفزان بما يضمه من ثروة ارضه ونبل قومه (3) .

وهذا الامام العياشى : يسجل سنـة 1072 (1661 — 1662) ما سيظل مرجعا لكل الذين يهمهمتاريخ هذه الديـار بأسلوبـه الخيـر

---

(1) الرحلة ما تزال لم تنشر الى الآن ، وتوجد منها عدة نسخ فى المكتبات العامة والخاصة بالمغرب وقد اعتمدت النسخة رقم 1288/د بالمكتبة العامة والنسخة رقم 5803 بالمكتبة الملكية ، والنسخة رقم 78 ج ونسخة رقم 786 ج والخلاف بين النسخ لا يكاد يذكر ،

(2) التمجروتى : النفحة المسكية فى السفارة التركية نشر وترجمة وتعليق دوكاسترى باريز 1929

(3) اللاكبي : مشروب كان بعض الليبين يتناولونه للنشوة ، عصارة تقطر من جرح النخيل ، هذا والرحلة معروفة تحت عنوان : (انس الساري والسارب من اقطار المغارب الى منتهى الآمال والمآرب وسيد الاعاجم والاعارب) وقد قام الاستاذ محمد الفاسي هذه الايام بنشرها . هذا وقد ترجم للسراج هذا صاحب الاعلام بتاريخ مراكش المجلد الرابع صفحة 273 — 274 مطبوعة 1 — 7 1975 ابن غلبون : التذكار نشر الزاوى طبعة ثانية 143 — 156 — 244 . محمد سليمان ايوب : مختصر تاريخ الفزان ص 104 — 105 — 106 . محمد الفاسي : دعوة الحق ، دجنبر 1958
FEZZANE OASI DI GOT
Reab Società Geografica àtaliana Parta Prima 1937

الرصين ، وملاحظاته الدقيقة الهادفة ، وروحه الطيبة النافــدة بالاضافة الى ما حرره من رسائل خاصة لبعض اصدقائه عن تلك الاراضى (1) .

وهذا محمد الدلائى الذى حج مع والده المرابط عام 1079 (1668 ـ 1669) يلذ له ان يتحفنا بداليته الفصيحة فى تعداد المسالك الرئيسيـة التى على الحاج ان يمر بها وفى صدرها طرابلس التى « جمعت المتناقضات على حد قول الشاعر الدلاتى ، اذ كانت تحفة البحر ومتعة البر » (2)

وهذا الهشتوكى الذى زار ليبـيا عام 1096 (1684 — 1685) يتحدث عن مليته وزنزور ، ويتحدث اليه كثير من رواد العلـم والمعرفة ويتبادل الشعر مع الذين استقبلوه فى زاوية سيدى عبد السلام الاسمر . ان المعلومات التى قدمها الهشتوكى عن مسالك الحاج تعتبر من اقـدم مـا انتهى الينـا (3) .

---

(1) القصد الى رسالة العياشي للقاضي ابي العباس بن سعيد المكيلدي المحفوظة بالمكتبة العامة من مجموع تحت رقم 43/5 من صفحة 302 ـ 316 . وقد توفـى ابو العبـاس مغرب يوم 25 ـ صفر ـ 1094 هذا ولا تكاد تخلو خزانة لعالم كبير مـن رحلة الامام العياشي وهنا عدد منها فى المكتبة الملكية والخزانة العامة ، وقد عثرت على نسختين جليلتين فى ليبيا احداهما فىمكتبة الجغبوب والثانية بخزانة اوقاف طرابلس ، وقـد طبعت الرحلة على الحجر بمدينة فاس ومع ذلك فان نفاذها جعلها دومـا فـى حكـم المخطوط . السلوة 3 ، 6 . 2 محمد الفاسي : دعوة الحق يناير 2959

(2) انظر البدو الضاوية فى التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية (مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 261/د الفصل الثامن فى ذكرى الشيخ محمد بن الشيخ محمد المرابط الدلائي ص 448 ـ 453 ـ 457 وانظر كذلك ديوانه بنفس المكتبـة رقم 3644 د من صفحة 59 الى 63 ب

يقول فى مطلع القصيدة :

زم الهـوادج واتئـد يا حـادي   فلقـد حملـت بهـا جميـع فـؤادى

الى ان يقول عن طرابلس :

نعم المدينة للحجيـج وحضـرة   ذات النخيـل غزيـرة الامـداد
من كل ما يحتاجه ذو حاجـة   جمعت ـ وحقك ـ جملـة الأضـداد
تحف البحور ومتعة البر التـي   خرجـت بزهرتهـا عـن المعتـاد

(3) المخطوط محفوظ بالخزانة العامة تحت رقم 190/ق مبتور القسم الخاص بطرابلس هذا وقد اجتمع بالهشتوكي فى درعة علامة ليبيـا الاستاذ عبـد الله السوسـي ... الناصرى احمد ، الرحلة ص 68 ـ 97 ـ اليوسى . المحاضرات طبعة فاس ص 61 . ابن قلبون : التذكار ص 233 المراكشي : الاعلام فى تاريخ مراكش المجلد 2 ص 154

وهذا الامام القادرى الذى حج عـــام 1100 (1688 — 1689) صحبة الشيخ ابن عبد الله تعطينا رحلته معلومات جد طريفة عن ليبيا ، ويكشف النقاب عن حقائق تاريخية ظلت الى اليوم مجهولة وخاصة ايـــام ولاية شايب العين ، وبالذات عن الاحتكـــاك الذى كان بين هـــذا وبين القبطان حسين كللايجى وصهريه مصطفى صرك وابراهيم صغجكلى (1) بل ان الرحلة لتصحح بعض الرائجات فى كتب التاريخ الليبى (2) .

وهذا الامير الشاب المولى المعتصم نجل السلطان المولى اسماعيل مع الاميرة ست الملك يزور ليبـــيا فى الطريق للحج عام 1101 (1689 — 1690) صحبة الامام الشهير **الحسن اليوسى** ويسجل هذه الرحلة نجل الشيخ اليوسى فيقدم لنا معلومات قيمة عن رباط طرابلس اواخر العهد العثمانى الاول وعن اجنة منطقة « المنشية » والمدينـــة القديمة ، وعن مختلف المراحل التى سلكها الركب واحدة واحدة الى البطنان (3) .

---

(1) الرحلة بعنوان : « نسمة الآس فى حجة سيدنا ابي العباس » محفوظة بالخزانة الملكية تحت رقم 8787 توجد نسخة منها بالمكتبـة العامة فـــى المجمـوع رقـم 1418/ك . وقد توفى ابو العباس هذا فى 19 ، جمادى الاولـى سنـــة 1133 هـ. السلوة 2 ، 353 — 354 ابن غلبون : التذكار 188 — 189 — 190 —

(2) نذكر على سبيل المثال بعض المعلومات التي اعطيت حول الشيخ ابـن سعيـد الهبرى الذي وردت الاشارة اليه فى شعر الأدب الطرابلسي احمد النائب :
(قد اختارها الزروق دارا وموطنا

كذا ابن سعيد مقتد بهداتها)

والذي تذكر المصادر الليبية انه توفى سنة 1093 مع ان لقاء حيـا تم بينـه وبيـن ابن العباس القادرى 1101 عشر سنوات بعد التاريخ المفروض لوفاتـه . ابـن غلبون : التذكار نشر الزاوى ص 225 النائب الانصارى : نفحات النسرين والريحان ص 130 — 131 132 .

(3) المخطوط محفوظ بالمكتبة الملكية تحت رقم 2343 . كما توجـد نسخـــة منـــه بالخزانة العامة في مجموع رقم 1418 ك . ولابد مع هذا ان تراجـع نسمـة الآس فى رحلة ابن العباس السالفة الذكر . وتنظر الزياني فى مخطوطتـه : الروضـة السليمانية فى ملوك الدولة الاسماعيلية ومن تقدمها من الدول الاسلامية ص 65(ب) محفوظ بالخزانة العامة رقم 1275 / د . ونشر المثاني حـوادث عـام 1101 محفوظ تحت رقم 2253 المجلد 2 . الخزانة العامة . الكتاني السلوة 71 ، 72 . عبـد السلام بن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الاقصى المجلد 2 ص 344 . النقيب ابـن زيدان : المنزع اللطيف ص 452

وهذا ابو العباس الناصرى الذى قام بآخر رحلاتــه عــام 1121 (1709 — 1710) يزود المكتبة المغربية بدقائق عن ليـبيـا سواء عند مداهمة الاسبان لمدينة طرابلس ايام ولايـة الحاج عبـد الله الازميرلى سنة 1096 (1684 — 1685) او ثـورة البلاد على خليـل باشـا ، ويعرفنا على طائفة من احداث طرابلس ويقدم الينا عددا من رجال العلم والفضل بمختلف اطراف البلاد ويكشف عن حقائق جد هامة (1) .

وهذه زيارة امير الامراء سيدى محمد بن السلطان المولى عبد الله بن الامبراطور المولى اسماعيل (محمد الثالث) لقد قام سنة 1143 — 1731 — 1732 صحبة جدته الفقيهة العالمة لالة خناثة زوجـة المولـى اسماعيل ، هذه الرحلة التى سجلها الوزيـر الشرقي الاسحاقي والتى رددت اصداءها المصادر المغربية والاوربية نظرا لما كان لها بعد من اثر على العلاقات الدولية (2) .

وهذا ابو مدين الدرعى الذى حج عام 1152 (1740 — 1741) يترك لنا وصفا حيا لمدينة طرابلس بما فيهـا حى الزرايـة ، الاسم الذى

---

(1) لقد رحل ابو العباس اربع مرات وتقع رحلته هذه فى مجلدين ، وهي مطبوعة بفاس سنة 1320 ... اما نسخها المخطوطة فتوجد بمختلف الاشكال بالمكتبة الملكية ، والخزانة العامة ... هذا وقد كان استطراد الناصرى بتسجيل مذكراته 1096 فرصة لاعطائنا فكرة جد حية من شاهد عيان عن احداث هذه الايام . ارجع للناصرى ص 65 – 66 – 67 – 68 . ابن سودة : دليل تاريخ المغرب المجلد 2 344 345 . ابن غلبون : التذكار 186 ص 204 .

(2) الرحلة فـى مجلدين ، يوجد الاول بالخزانة الكبرى لجامعة القرويين مـن اوقاف السلطان المولى عبد الله على المكتبة المذكورة سنة 1156 وهي تحمـل رقـم 258 / 80 وتوجد نسخة اخرى فى مكتبة النقيب ابن زيدان تحت رقم 1428 ، وصارت الى المكتبة الملكية . ولا اعتقد نسخة النقيب الا منقولة عن نسخة القرويين
ابن غلبون : التذكار ، نشر الزاوى طبعة ثانية ص 262
ريتشارد تولي : عشر سنوات فى بلاد طرابلس نقله الى العربية عمر الديراوى ابو حجلة ، مكتبة الفرجاني طرابلس ص 167 .
ورد لفوميكاكي : طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرماتلى نقله الى العربية طه فوزى (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية) ص 109
AMBASSADOR ABDELHADI TAZI : MOROCCAN AMERICAN RELATIONS 26-1-67 P. 22
ابن عثمان : الاكسير فى فكاك الاسير تحقيق وتعليق الاستـاذ محمـد الفاسـي ، نشر المركز الجامعـي للبحث العلمي ص خ .

يعطيه الحجاج لحى الظهرة ، ويتحدث عن الحالة الاجتماعية للبلاد ويقدم لنا بعض الشخصيات العلمية ثم يأتى على ذكر المراحل من الحدود الغربية الى الشرقية (1) .

ومن الطريف اننا قد نتوفر فى سنة واحدة على رحلتين اثنتين لمؤلفين اثنين . وهكذا نلمس اثر المنافسة فى تسجيل الخواطر وصياغتها بالاسلوب الشيق الساحر .

وهذا الشيخ الحضيكى الذى زار ليبيا ايضا عام 1152 (1740 — 1741) فحكى عن حدودها الغربية وعن مدنها العتيقة بما فيها تاجوراء وطرابلس ومصراته واجدابية (2) .

وهذا المنالى الزبادى يزور ليبيا عام 1158 (1746 — 1747) فيستوعب الحديث عن منطقة الظهرة والزراية بطرابلس . ويقدم الينا فوائد هامة تتعلق بالمخطوطات التى عثر عليها اثناء مروره بليبيا عيد العلماء الذين اجتمع بهم عند ايابه سنة 1159 — (1747) (3)

وهذا الاستاذ التازى ينظم حوالى سنة 1162 (1749 — 1750) مسالك ليبيا فى همزية طريقة تبلغ ثلاثمائة وخمسة وثلاثين بيتا يأتى فيها بمعلومات عن مواقع اصبحت الآن مهددة بالنسيان ،

---

(1) الرحلة توجد محفوظة بالخزانة العامة تحت رقم 297 ، وانظر الى جانب هذا رحلة المنالى التي تمت عام 1158 وهي محفوظة بالخزانة العامة رقم 398/د ، وتوجد نسخة فى ملك الاستاذ السيد محمد العابد الفاسي محافظ الخزانة الكبرى لجامعة القرويين من مدينة فاس .

(2) ولد الشيخ الحضيكي سنة 1118 وتوفى 1189 بالسوس الاقصى ، ورحل في طلب العلم وكاتب من لم يلقه فى الشرق والغرب بحيث يستغرب ذلك من طالع مجاميعه وفهارسه وفهارس اصحابه . والمخطوط محفوظ فى المكتبة الملكية تحت رقم 405 . فهرس الفهارس ص 260 — 261 — 262 .

(3) توجد عدة نسخ من الرحلة المذكورة بالمغرب الاقصى ، ولكن من احسنها التي توجد فى ملك الاستاذ محمد العابد الفاسي محافظ الخزانة الكبرى لجامعة القرويي بفاس . هذا وقد حج معه الفقيه مولاى احمد الصقلى دفين حومة البليدة والقطب سيدي عبد الوهاب التازى دفين القبب خارج بلاد الفتوح . السلوة 2 ، 134 — 184 — 185 — 186 ... ابن هاشم الكتاني : زهرة الآس في بيوتات فاس محفوظ بالخزانة العامة رقم 1281 د .

فيها غافق والزحيحيف والسروال (1) .

وهذا الشيخ ابن عبد السلام الناصرى فى رحلته الاولى عام 1196 (1782 — 1783) يعطى صورة كاملة عن ليبيا بكتابها وادبائها ، وعلمائها ومعالمها ، ويتحدث عن المخطوطات التى وقف عليها ، وقد كان المغربى الاول الذى قدم لنا قصيدة ابن عبد الدائم ، وكتاب التذكار لابن غلبون على حقيقتهما (2) .

ثم هذا الناصرى بنفسه يقوم برحلة ثانية عام 1211 (1797 — 1798) ويلذ له ان يقارن ويفارق بين الحالة الداخلية فى ليبيا ايام على القرمانلى وبين ايام ابنه يوسف ويتحدث عن الجفوة بين بنى سيف النصر وبين امير طرابلس . بين رحلته الاولى حاجا عاديا وبين رحلته هذه وهو مكلف من قبل سلطان المغرب المولى سليمان بمرافقة الامير مولاى احمد نجل السلطان وعمه مولاى موسى شقيق المولى سليمان (3) .

---

(1) القصيدة توجد ضمن مجموعة محفوظ بالخزانة العامة تحت رقم 3490 دى وقد نشرها الاستاذ اليحاثة السيد محمد المنونى سنة 1953 في كتاب « ركب الحاج المغربي » مطبعة المخزن تطوان ص 89 — 104 . اما صاحب المنظومة فقد نعته ابو الربيع سليمان الحوات في كتاب السر الظاهر بالفقيه العلامة الاديب ابي عبد الله محمد بن الحاج التلمساني ثم التازى المتوفي بالمشرق فى حدود السبعين ومائة والف ، كما حلاه الشيخ التاودى بالاستاذ الفقيه النحوى وذكر انه كانت له معرفة به لما بينهما من القراءة على الشيخ الوجارى وانه ارتحل بعد ذلك من فاس لتازة لتقلد منصب هناك ...

(2) توجد نسخة محفوظة بالمكتبة بخط المؤلف تحت رقم 5658 كما توجد نسخة مصورة بالخزانة العامة تحت رقم 2651 وكلاهما ذو خط مغربي جميل ، وقد لخص الرحلة هذه العباس بن ابراهيم فى كتابه الاعلام المجلد الخامس ص 189 . النائب الانصارى : المنهل العذب : الاول 329 ترجمة مصطفى الخوجة . الزاوى : اعلام ليبيا ص 343 محمد الفاسي : الرحالة المغاربة وآثارهم ، دعوة الحق ، يناير 1959 .

(3) توجد عدة نسخ لهذه الرحلة ، وقد اعتمدت مخطوطة فى ملك الاستاذ السيد السيد عبد السلام بن سودة استنسخها من نسخة بخط المؤلف بخزانة الاستاذ الصديق الفاسى . انظر صفحة 46 حيث يقول الناصري : وصلني وانا بتازة كتاب الامير نصره الله يعين لي كيفية توزيع الصدقات . وهناك نسخة محفوظة بالخزانة الملكية رقم 121 .

وكما حصل عام 1152 (1740 — 1741) عندما كسبنا رحلتين اثنتين ، فكذلك زار ليبيا ايضا سنة 1211 (1797 — 1798) الشيخ الفاسى الذى كان ضمن اعضاء الركب فأتى بالطريف عن البلاد ، مما يعتبر فريدا فى بابه ، وقد قدم وصفا ناطقا عن احداث على بن برغل الذى استغل خلاف على مع ولده يوسف فاستولى على طرابلس . كما تحدث عن المصاهرة التى كانت بين آل سيف النصر والعاهل المغربى ، واذا كان الناصرى (سنة 1121 — 1709 — 1710) ، والدرعى سنة 1152 (1740 — 1741) قد ضل عنهما اسم **البازين** بعد ان تناولاه فى **ساحل حامد** فان هذا الفاسى لم يفته ان يصف لنا منظر ازيد من اربعين تصعة من البازين مرتبة احداهما الى جانب الاخرى (1) .

وهذا الغيغائى الذى حج عام 1274 (1858 — 1859) لم يفته ان يسجل — ولو ان سفره كان بحرا — تردد الليبيين على جزيرة مالطة وخاصة منهم سكان طرابلس (2) .

---

(1) اعتمدت على نسخة بخط المؤلف فى ملك الاستاذ الثبت السيد محمد العابد الفاسى محافظ الخزانة الكبرى لجامعة القرويين ... هذا ويعتبر البازين اكلة رومانية تحتاج الى اتقان ومهارة وقد نقل ليون الافريقي ـ الحسن بن محمد الوزان ـ ان البازين كان الغذاء الاساسي لطرابلس ، وفى معجم دوزى ان كلمة البازين اصلها زبزين ... ولا يوجد احد ممن طال مقامه في ليبيا لا يعرف عن هذه الاكلة المحببة التي لابد لتذوق ملاذها ان يعرف المرء طريق تناولها حتى يتخلل المرق ذرات سميذه ، وحتى لا يردد ما ردده فى القرن التاسع الشيخ الصنهاجي : عندما سئل عن عدم اقباله على البازين : « لم يكن بارض قومي فاجدني اعافه »
وقد قال فيه الشيخ ابراهيم باكير :

خير الموائد عندنا البازين — واللحم حوله ناضج وسمين
فاقطع بكفيك قطعة من اصله — ثم اد لكنها جيدا فتلين
حتى اذا ما اشبعت مرقا فكل — بالخمس من يمناك فهي تعين

الناصرى احمد : رحلة ص 81 . دوزى ـ المجلد 1 ص 82 ، 579 الاتحاف 3 ر 598 ابن غلبون ـ مقدمة الزاوى ص (ين) على المصراتى : لمحات ادبية عن ليبيا ، ص 125 ـ 126 .

(2) هي رحلة رائعة توجد فى الخزانة العامة مصورة على شريط رقم 12 . وقد تضمنت معلومات كانت بالنسبة لزمن المؤلف احداثا هامة . ولكي يعطى الرحالة الاديب صورة ناطقة للقراء عن مشاهداته عمد الى تصوير الاعمدة الهرتزية . والقطار الحديدي كما رآها ببعض البلاد الشرقية .

وهذا الاستاذ السبعى الذى رحـــل عام 1310 (1893 — 1894) يعطينا معلومات جد مفيدة عن الحركة العلمية فى زاويـــة الجغبوب وعن بعض مؤلفات الامام السنوسى ثم عن الدور الذى يضطلع بـــه القائدان العظيمان السيدان : المهدى ومحمد بعد وفـــاة والدهما الامـــام سيدى محمد بن على السنوسى (1) .

ولم يقتصر المغاربة على تسجيل انطباعاتهم عن ليبيا بالنثر والشعر الفصيحين ، ولكنهم عدوا ذلك الى التعبـــير عن مشاعرهم بالشعر الذى يعرف باسم « الملحون » فى المغرب الاقصى وقد نظم الحاج ادريـــس بن على الحنش ، والحاج محمد بن على المسفيوى قصائد بالملحون ضمناهـــا بعض مسالك ليبـــيا الى البقاع المقدسة (2) .

من ذلك قول الحنش :

من قابس توصل طرابلس المنيره ادخل بلاد مسراته وانت ســـارى

زر البرنوسى تهـــون كل عسيره شيخ الشيوخ سيدى زروق القارى

من قالوا ناس لوفا ، عليه روينا تآلفـــوا مشاو تجـــول البلـــدان

مثل التفسير الكبـــير بالتبـــيـــينا نصيحـــة ، شرح الحكم الثـــانى

* * *

من مسراتا يـــا حمام لا تزهـــزا اجعل راحتك نوصيك فى بنغـــازى

من بنغـــازى زد لا تشاهد عـــزا وانزل بجبل الاخضر على مرازى

واقطع السروال فى حما ذا العزا اللى يوصلـــك لمنـــازل الحجازى

---

(1) الرحلة مخطوطة محفوظة بالمكتبة العامة تحت رقم 2908/د وقد استطـرد مؤلفهـا الفقيه الجليل احمد بن محمد السبعي بحديث طريف عـــن الزاويـــة السنوسيـــة بالينبع التي تبعت اولى زواياه باولاد نايل بالقطر الجزائرى بين عين ماضي وعبـــد المجيد وتبعت كذلك زاوية قبيس ، وكان مما انشده تعليقا على كتاب البدور السافرة عندما قدمه اليه سيدي محمد بن علي الغماري : قال

جزى الله خيرا من حبانا بعلم ذا ولقـــاه مـــا يرجـــو بجنة خلـــده

سليل سنوسي المجد يا رب رونا بمالـــه من بحـــر حـــلا وبجـــده

(2) من مجموع فى ملك الاستاذ السيد محمد بن عبد الهادى المنونى .

ومن ذلك قول السفيوى :

بعد كــابس فى مسايـــر تشــوف بغـــلاس
مـــن سواحــل جريـــه حتى طـــرابلـــس

بـــات واقصد طبـــرق ولا ترافـــق كفــول
تصـــب بن غازى طرف اليـــم على الفـــلا

كن فى برقـــة حافـــى ليصيـــدوك دهـــول
فى مهـــامـــه درنـــة ما تلقـــى دهـــلا

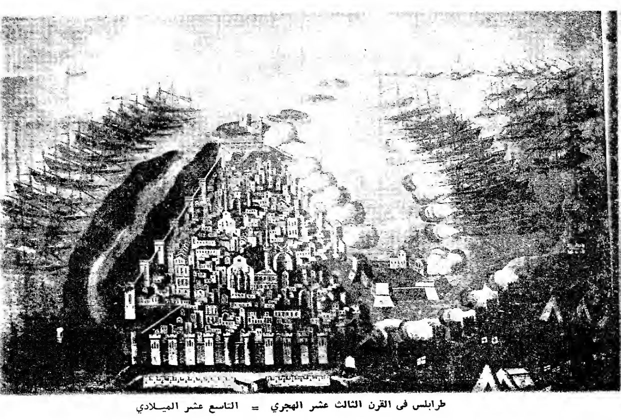


سيدي محمد في ليبيا

لقد كان على الركب الاميرى أن يقضي سبعين يوما فى الطريق بين مدينة فاس التى ودعهـــا يوم حادى عشر جمادى الثانية من سنة 1143 (22 — 12 — 1730) وبين منطقة الزوارات ، اول نقطة فى التـــراب الليبى او ولاية طرابلس كما كانت تسمى فى القديم ، فلقد وصلت القافلة الى راس اجدير يوم الاحد الرابع والعشرين من شهر شعبان من السنة بعد مغادرتها لمركز ابن كردان من ولاية تونس فى الليلة الماضية .

أن الزوارات متصرفية واسعة تبتدىء عند الحدود وهى تابعـــــة لمحافظة الزاوية . والزوارات كما يعرف التاريـــخ القديـــم قسمـــان : الزوارات الغربية او زوارة الصغرى ، والزوارات الشرقيـــة او زوارة الكـــبـــرى .

لقد مرت القافلة بالزوارتين اللتين يحملان اليوم معا اسم (زوارة) بما فيها ويزدير ومليته وتليل ..



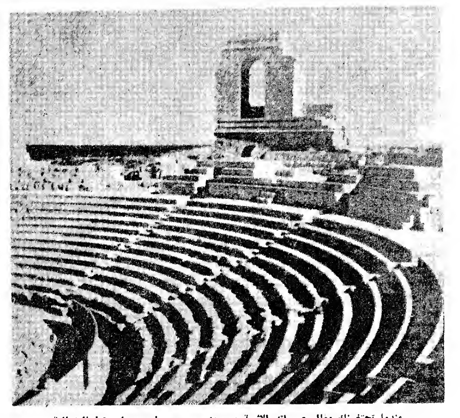
طرابلس فى القرن الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي

وكما كانت العادة منذ اوائل القرن الثامن فقد نقل سكرتير الرحلة ما ردده بعض من سبقه من حديث عن أباضية زوارة ممن لـم يتـردد الرحالة فى نعتهم بالشذوذ والتزمت . الامر الذى دفع بالبعض للدفاع عن استقامة الزواريين . ولم يفت الكاتب الشرقـى الاسحاقى ان يسجـل انطباعه عن هذه الناحية من حيث التحرش بالمارة بهم مذكرا ان البلاد يسودها الآن الامن والاطمئنان . لقد قضوا ثلاثة ايام فى منطقة الزوارة وصلوا بعدها الى متصرفية الزاوية . وهنا مروا بمدينة زواغة التى يقع فيها قصر تليل ، وبعيدها شرقا تقع صبـرة التى تعرف اليـوم باسـم صبراته : المدينة الاثرية الثالثة التى تعنيها كلمة طرابلس (TRIPOLIS) (المدن الثلاث) : صبراته ــ اويا ــ لبدة ، وقد اثنى كاتب القافلة على اهل الزاوية شأن الذين سبقوه مـن الرحالة المغاربة . وقـد تنعـت بالغربيـة فيسمونهـا « االزاويـة الغربيـة » تمييـزا لهـا عن الزاوية التى تقع شرقى مدينة مصراته . ولم يفت الكاتب الحديث عن المعالم الاثرية لمدينة صبراته وعن ذكر تاريخ فتحها من لدن عمرو بن العاص

ويوم الخميس 28 شعبان نزلوا على القرية التى تعرف اليوم باسم قرقارش المحرف عن ايم قراقوش القائـد الـذي كان لـه هنـا قصر معروف . وقد قضى الركب ليلته هنا بيـنما انفـذ الى العاصمـة طرابلس بعض الطلائع لاحاطة رجال السلطة علما بساعـة وصـول العائلة الملكية . وفيهم من قصد توا منطقة (المنشيـة) لضمان المأوى للعدد العديد من رجال القافلة . و (المنشية) هذه محلة بظاهر المدينة يانعـة الاطراف رائعـة المنظـر عليلـة الهـواء ، وافـرة الثمار والمياه ، رحبة البيوت والمساكن . هذه المنشية التى تحمل اليوم اسـم (مدينة الحدائق) والتى تضم اليوم بعض بيـوت الوزراء والسفـراء وعليـة القـوم .

الاسـتقبـال الرسمـى بطـرابلـس

كان الدخول لمدينة طرابلس عصر يوم الجمعة 29 شعبان وقد كان بالصدفة آخـر يوم فى شعبان فاقترنت الفرحة بمقـدم الركـب الاميرى وتعطيل البلاد استعدادا لاستقبال هلال رمضان . لقد خرجت البلاد عن



عندما تحتضنك معالم صبراته الاثرية بين مدرج مسرحها وبين اعمدتها المتعالية
وتماثيلها الشاخصة تشعر بأنك امام ملحمة تاريخية هائلة ، لا تكاد تخلو رحلة
مغربية من التنويه بها والاشادة بتاريخها ، على بعد 67 ك. م. غربي طرابلس

بكرة ابيها رجالا ونساء الى ظاهر المدينة . وقد هيأت الاسرة الحاكمة : اسرة القره مانلى : منهاج احتفال تشريفى دقيق فلقد بعث صاحب المدينة احمد باشا القره مانلى بولى عهده الامير محمد ليكون فى استقبال الامير المغربى وكان محفوفا بكبار موظفى القصر . وعدد كبير من الجند والحرس . خرج الجميع حتى ضواحي المدينة الى نواحي قرقارش . . وقد اخترق الركب وسط المدينة التى ازدحمت بالمستقبلين وصعد الناس سطوح المنازل وتسلقوا الاشجار ، وخرج اعضاء السلك الدبلوماسى لمشاهدة هذا الركب الرائع . . وقد تعالت اصوات الناس بالهتاف وكانت المدافع الكبيرة فى هذا الوقت بالذات تتبارى فى تحية الركب بطلقاتها المتوالية على العادة المتبعة بين الدول ذات السيادة على البحار .

لقد كان اعجاب الناس جميعهم عظيما بالامير سيدى محمد . فلقد ظهر عليهم كرجل عاقل بالغ سن الرشد مع ان سنه لم يكن يتجاوز تسعة اعوام ، اصغر من ولى عهد طرابلس باثنتى عشرة سنة ، ولكنه كان علوى السمت مؤثرا للصمت ، يكتفى بابتسامات خفيفة يرسلها احيانا جوابا على التحية . لقد عرف الملوك المغاربة بالحرص الشديد على تهذيب ابنائهم والعناية بهم منذ الصغر اذ كانوا يعدونهم لمقامات الجد . وقد كان يرافقه بالاضافة الى الوزير والقاضى ، مؤدبه الخاص الفقيه ابو القاسم التسولى ، تحيط به كوكبة من العسكر المعروف فى تاريخ المغرب بعبيد البخارى او (البواخر) كما يسمون اختصارا . ولقد ارتدى لباسه المغربى الجميل الذى أضفى عليه مزيدا من البهاء ، وكان الجنود المغاربة جميعهم يتحلون بزيهم العسكرى الذى كانوا يعدونه عندما يدخلون الى عاصمة من العواصم . وكانت سمعة المغرب سبقت مجيء الركب . ان الكل يعرف الكثير عن السلطان المولى اسماعيل الذى استطاع وحده دون بقية حكام الشمال الافريقى ان يقف فى طريق العثمانيين ويصرفهم عن الاشراف على المحيط الاطلسى . وكانوا سمعوا عن شجاعة ابناء السلطان المولى اسماعيل وخاصة منهم السلطان المولى عبد الله الذى يوجد ولى عهده اليوم صحبة اميرة جليلة كانت زوجا لمولى اسماعيل ، وهى ام لمولاى عبد الله وجدة سيدى محمد .

ولقد اعدت منصة عظيمة لاستراحة الامير الصغير قبل ان يلتحق بالقصر الذى خصص لمقامه . وهنا جرت « العاب الفروسية » التى اعتاد القادة الليبيون الشجعان لحد الآن القيام بها عندما يزورهم ضيف كريم او زائر عظيم . وقد حركت هذه الالعاب الجنود (البواخر) فاخذوا الجياد بدورهم واطلقوا العنان لها فبرزوا واتوا بالعجب العجاب الامر الذى اثار انتباه رجال السلطة كثيرا فاخذوا ينشرون عبارات التقدير والاطراء للفرسان المغاربة . لقد كانت فرصة فريدة للقاء الجيش المغربى الليبى وتعرف كل منهما على الآخر . وقد عرفت بساتين المنشية حركة غير عادية حيث تلألأت البيوت بالاضواء والانوار وتضوع اريج الركب الملكى الميمون .

وتسجل مصادر التاريخ سواء منها المغربى او الليبى او الاجنبى ان امير البلاد احمد باشا عنى بضيوفه عناية فائقة فلقد خصص عددا كبيرا من الجند لخدمة الركب ، ووفر المؤنة اللازمة لسائر الاعضاء . وكانت الموائد تتردد باستمرار على بيوت الحاشية . لقد كان يشرف بنفسه على راحة الامير الصغير ، وكانت عقيلته وحظاياه يشرفن بدورهن على خدمة الاميرة الجليلة فقد خصص للاميرة وحفيدها عرصة فسيحة الارجاء انيقة البناء . ان الحجاب الذى تتميز به الاسرة المالكة كان من الكثافة بحث لا يسمح معه بأى نوع من انواع الظهور . ومع ذلك فقد ظل الامير سيدى محمد هو المالك الطاهر الذى يمكنه التنقل بين حاشية جدته الملكة ، وبين حاشية الاميرة زوجة الباشا . لقد تركت صورة هذا الطفل انطباعا ظل منقوشا بين جنبات القصور القره مانليه ولذلك فان اسم سيدى (محمد المهدى) كما كانوا يلقبونه ما انفك سراج المجالس بما منحه الله من دماثة خلقه وحصافة راى . ولهذا استمروا يتتبعون مراحل عمره وتدرج سنه ، وشفوف مناصبه حتى سمعوا بأنه اصبح عاهل المغرب العظيم ، وقد كانت هذه العواطف متبادلة بين الامير الجليل وبين مستضيفيه ولذلك ما فتىء يتتبع اخبار طرابلس واحوالها .

انه من الطريف ان نستمع عن الجو المرح الذى عاشه الامير المحبوب هنا ، فلقد وفر له باشا طرابلس جملة من الرفاق الصغار فى سنه كانوا يتجاذبون معه اطراف الحديث عن العادات المغربية فى المآكل

والملبس والملعب ، وقد احتفظ لنا التاريخ باسم بعض هـؤلاء الرفاق ، اصبح فيما بعد تاجرا كبيرا من تجار جبل طارق ذلك هو السيد محمـد جنيح الطرابلسى الذى تحدث للسفير ابى القاسم الزيانى عن ان سيدى محمد دخل الى دراهم وانه كان من اقرانه الذى صاحبوه طيلة مـدة مقامه (1) بطرابلس . ومن غير شك فان الامير الصغير كان لا يجد كثير صعوبة فى تفهم التعبير الليبى لان اللهجتين تكادان تكونان واحدة لولا بعض الخلاف البسيط حول جملة من الاسماء (2) .

لقد كان ولى العهد سيدى محمد محط انظار الكل باعتباره اصغر افراد القافلة الملكية واقربها الى القلوب وكان يزيـد فى تعلق القوم بـه مخايل السمو والنبل التى كانت تبدو عليه فى حركاتـه وسكناته . وكان الباشا يتمنى ان يتلقى من ضيوفه اقتراحا او مطلبا ليسعد بتلبيـتـه ، وكانت الاسرة القره مانلية فى اكثر الاوقات تعرب عن رغبتها فى ان تتملى من رؤية الامير الصغير ومرافقته فى سائر التنقلات والزيارات .

ولقد كان المقام بمدينة طرابلس فرصة لاستعادة التاريخ الاسلامى والمعمارى للمدينة منذ صرف الروم عنها وافتتاحها من قبـل عمـرو بن العاص سنة اثنتين وعشرين أيام الحكم الاسلامى المباشر فى عهد الامويين والعباسيين الى ايام الاغالبة والفاطميين وبنى هلال والنورماندييين الى ان بعثت ليبيا بسفيرها ابن مطروح الى الموحد ين لطلب النجدة من عبد المؤمن وهو بتونس سنة 555 هـ (1160) م .

كما كان المقام بطرابلس الفيحـاء فرصـة للحديـث عن معالمهـا ومزاراتها : تحدثوا عن جامع عمرو بن العاص وجامع الناقة ، ومسجد المجاز فى داخل المدينة كما تحدثوا بظاهر المدينـة عن مسجد الشعـاب

---

1) الزياني : الروضة السليمانية ، محفوظ بالخزانة العامة رقم 1275 / د

2) نعتقد ان اللهجة القديمة تعكس آثارها على اللهجة التي يتحدث بها اخواننا فـى اليـوم ... لقـد عرفنا مثـلا عـن تسميتهم للبيض بالدحى ، وعن (نبي) بـدل (نبغي) ... ومن الملاحظ عند الاستهام انهم يختمون اللفظ بضمة ربما تكون عندهم عوضا عن تعبير : أليس كذلك ؟ فاذا طلبت احدا بالتلفون ربما اجبت : تبيهو ؟ بضم الهاء بمعني هل تريده ؟ واذا اراد احد سؤالك هل انت هو السفير ؟ قـال لك : السفيرو ؟ يعني هل انت هو السفير الخ ...

ومسجد خطاب ومسجد الجدة ، ولم يهمل الاستطلاع عن المدرسة المنتصرية وقوس ماركوس اوريليوس . وجامع بني عبيد وبئر ابي الكتود . ولقد زاروا مشهد سيدى عبد الوهاب القيسى ، وسيدى سالم المشاط وضريح القائد التركى درغوت . ولم يقتصر شأن الركب على هذا ولكنه تجاوزه الى الاتصال ببعض اهل العلم الذين امكن التعرف عليهم بالعاصمة ، لقد لقيهم لاجىء سياسى من تونس هو الفقيه محمد التونسى ، ، كما لقيهم الاديب محمد بن مقيل ، والشريف الفرجانى . والفقيه الاضرم . كما اجتمع الوفد ببعض افراد الجالية المغربية الموجودين بطرابلس آنذاك

لقد كانت زيارة الركب على اثر استهداف طرابلس لغزو اجنبى كان له اثر ملحوظ فى الحديث عن الحركة العلمية بالبلاد ، تماما فى مثل الظروف التى زار فيها العبدرى طرابلس التى كانت على اثر قصف المدينة . ونتيجة لذلك فقد حمل العبدرى حملته المعروفة ، ونتيجة لذلك ايضا نهج الاسحاقى طريقة العبدرى فسجل انطباعاته الخاصة عن ركود الحركة العلمية بالبلاد ، الامر الذى اتى ثمرته على الفور فخلق جوا من المناقشة الهادفة والعتاب الطاهر . مما سأفرد له فصلا لاحقا .

وقد لفت نظر الشرقى الاسحاقى امور ثلاثة هامة فى ليبيا ، فلقد كان معجبا بمرسى طرابلس آنذاك ، كانت كبيرة جدا واسعة الاطراف ، وقد اصطفت بها المراكب الكبيرة كما تصطف الجياد فى مرآتبها ، انه منظر تنشرح له النفس وينفتح له القلب ، والامر الثانى الذى اثار انتباهه هو نوعية (الليم) الذي يوجد بأجنة طرابلس ، لقد اختص من دون برتقال الدنيا بمزايا ثلاث هو عطر الرائحة من جهة ، ومرهف القشر من ناحية ثانية وهو الى هذا وذاك صادق الحلاوة ، وبالرغم من ان الاسحاقى تذكر النوع الجيد من الليم الذى يوجد بالمغرب وخاصة بمدينة تطوان ومدينة سلا ، لكنه اضطر امام نوعية الليم الطرابلسى لتناسى كل حملاته ليعترف بأن (اللتشين) فى هذه البلاد احسن وافضل ، أما الامر الثالث فهو تصميم المدينة وشبكة الطرق بها ، لقد اعجبه ان تكون على هيئة الشطرنج ، وقد شبهها فى هذا الوضع بمدينة الرباط بالمغرب الاقصى



قوس ماركوس أوريليوس حيث كانت ((اويا)) احدى المدن الثلاث التي تعينها طرابلس ، لقد كان الرحالة المغربي العبدري أول من تحدث عنه ، وبعده وصفه التيجاني وهو الذي ورد الحديث عنه في الرحلة الاميرية ، أما المنارة التي تظهر خلف القوس فهي لجامع قرجي الذي شيد في مكان المدرسة المستنصرية فيما يظهر وقد كانت هذه المنطقة حيا دبلوماسيا يحتضن القنصلية الفرنسية والبريطانية ...

وقد تاثرت الملكة الجليلة من هذا الاستقبال الحـار الذى خصصته لها الاميرات كمـا تأثـرت بمـا بلغهـا من احتفـال الباشـا ورجال الدولة بالامير الصغير ففتحت خزائنها ونفحـت كل واحـد وكل واحدة بأنواع التحف ، ومختلف ضروب العطاء ، لقد اضعفـت للباشـا الجزاء اضعافا مضاعفة واعطته عطاء ملوكيا على حد تعبـير المـؤرخ المغـــربى

وقد اخجلت هذه العطايا الجزيلة ايضا احمد باشا وابدى شكـره وتمنياته لعودة الركب من الديار المقدسة سالما غانما ، وأراد ان يـتبع التكريم بتكريم اشمل واوفى فزود الركب بعشرات الجمال من اجـــود ما عرفته ليبيا وبالاضافة الى هذا بعث لسائر اعماله ـــ على ما يحكى المؤرخ الليبى ابن غلبون فى تاريخه ، فى المحافظات الشرقية يأمرهم بتجنيد كل طاقاتهم لتكريم الركب الملكى وقضاء مآربه واغراضه ، وان لا يودع احد من المحافظين الركب الا عندما يسلمه الى المحافظ المجاور . الامر الذى تحقق فعلا فقد ودع الركب طرابلس تتهاداه عناية ممثلى السلطة المركزية عبر المراحل التى كان على الركب ان يقطعها سواء على السواحل أو فى صميم الصحراء .

لقد اعتدنا من جل القوافل التى مرت بهذه المناطق اعتدنا منهـــا الشكوى والتذمر مما قد تتعرض له من غارات ، وما تستهدف لـــه من عوز وخصاص لكن هذه القافلة كانت فى تصورنا من القوافل القلائل التى لم يظهر منها تشكى ولا تباكى ، والتفسير الوحيد لذلك هو انهـا كانت ـــ كما اشرنا ـــ من القوة والمنعة بحيث لم تكن هدفا لمطمع ولا غرضا لمنزع ، هذا بالطبع الى قيام السلطات الليـبية بالحراسة الشرفية التى تقتضيها رسوم الضيافـــة .

نعم ثمانية ايام كاملة قضاها الركب الملكى فى ضيافة الاسرة القره مانلية ، تقام له عند الافطار المآدب الفاخرة المتعددة الاشكال والانواع ، ولا نشك فى ان من بين الصحون التى قدمت قصاع من « البازين » ولو انه فى رمضان قليل التناول . وطرابلس فى مستهل الربيع تكون غنـــية

بحوامضها وفواكهها ، جميلة ببراعمها وزهورها ، معتدلة فى هوائهـــا ومنـــاخـــهـــا

ثمان ليال استحالت الى ايام بيض ، كان الناس يسهرون فى الحديث والذكر تارة ، والدرس والعبادة تارة اخرى .

لقد كانت هذه المدة ـ على قصرها ـ كافية لربط اواصر الرحم بين الضيوف واصحاب البلاد ، ولذلك كانت فترة الوداع مؤثرة لم يخفف من لوعتها الا الامل فى العود المحمود ، لقد خرجت الاسرة القره مانلية عن بكرة ابيها لتوديع الركب بما فيهم الامير احمد باشا وولى عهده الامير محمد . وحريمه كذلك ، والوزراء والعلماء ، والجند ، كل يودع رفاقه .

من المهم ان نتصور طرابلس على ذلك العهد ، لقد كانت حســب الوثائق التاريخية ملتقى حيويا لسائر القوافل الصادرة والــواردة حتى ليمكن ان تتخيل الحركة فيها على نحو ما هو عليه الامر اليوم ، وكل ما فى الامـر ان الطائرات والسيـارات عوضـت قوافـل الجمـال ، ان المدينة مزدحمة على الدوام بالمسافرين الذين يقصدون البقاع المقدسة او الذين يردون منها والاعراب الذين يردون من الاسكندرية محملين بالحجاج والبضائع ، يجدون فى طرابلس جماعات اخرى تنتظرهم فى طريقها الى الاسكندرية ، وهكذا دواليك طيلة السنة ، ويترقب المشرقون اخبارا من الذين رجعوا عن حال تلك الجهات كما ان المغربين يجدون فى طرابلس من البريد ما يشغلهم اياما باخبار الاسرة والبلاد ولهذا فان المدينة لا تخلو من مجامع واندية ، ولا بد ان تسنح الفرصة بلقاءات ووداعات ، ونحن اذا اردنا ان نستوعب ادب الرسائل بما فيها من شعر ونثر مما حــرر بطرابلس او وصل اليها لوجدنا نفسنا امام تراث ضخم ، ولعل مـــن الممتع ان نستعرض صورة من صور تلك المقابلات التى تمـــــت تلقائيا بالمدينة عندما زار طرابلس الامير المولى المعتصم ابن السلطـــان العظيم المولى اسماعيل فلقد اتفق ان الامير كان فى طريقه نحو البقـــاع المقدسة سنة 1151=1738 هـ واتفق كذلك ان كان الشيخ ابو العباس القادرى فى طريق رجوعه من المشرق وسمع الشيخ بمقدم الامير فابـــدى رغبته فى ان يسلم عليه ، ويتجـــه الشيـــخ ابـــو العبـــاس الى حيـــث

يقيم المولى المعتصم ، ويقدر الامير من ابى العباس ادبه فيقف عند الباب فى استقباله يرحب به بهذه العبارات الجميلة : « مرحبا بسيدى الذى جاء عند ولد سيدى » يكررها مرارا ، واهوى الشيخ ابو العباس على رأس الامير يقبله ويدعو له ، وجلس اليه ردحا من الزمان يتحدث اليه عن الظروف التى تم فيه اداء المناسك ، كما تحدث الامير فيها للشيخ عن حال المغرب كما تركه وعن اخبار والده العظيم ، ذلك لقاء واحد من آلاف اللقاءات التى كانت طرابلس تشاهدها فى مختلف فصول السنة .

ولا بد بعد هذا ان نفتح هنا قوسين لنتحدث فى كلمات قصيرة عن الأثر الذى تركته هذه الرحلة فى ذهن الامير فى تفكيره وفى خبرته واطلاعه . ان الحكمة تقول « اعطيني سفرة واحدة وخذ مائة نصيحة » ونعتقد ان ذلك صحيح ، بل وممعن فى الصحة ، وبخاصة اذا كان الذى يقوم بالسفر فى سن مبكر حيث يساعد صفاء ذهنه على نقش الاحداث والصور فى مخيلته ، وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للامير سيدي محمد فقد استفاد جدا من هذه اللقاءات ، للحياة الحافلة التى كانت تنتظره وخاصة فى ميدان العلاقات الدولية . ان الامير الملك كان يعرف سلفا الشيء الكثير عن حياة « الآخرين » ولذلك اتسمت ايامه بانها الايام الدبلوماسية للدولة العلوية . ان ذلك لم يكن فعلا من قبيل الصدفة ، ان محمد الثالث بدأ حياته الدولية منذ الصغر ، يفتح عينيه فى كل يوم على جديد ويجد مساء فى جدته العالمة العاملة الاجوبة العريضة على كل سؤال يطرحه عليها او اشكال يشعر به .

وفى مقابلة ذلك تركت زيارة الامير الصغير الى ليبيا انطباعا طيبا جدا سواء لدى البلاط القرمانلى او المواطنين الليبيين لقد اخذوا صورة صادقة عن واقع البيت المغربى ، وعن المملكة المغربية ، ان هناك واجهة واحدة ولا واجهة غيرها تمكننا فى يسر وبساطة من الحكم على الشعوب والامم . تلك الواجهة هى الفرد الواحد من تلك الامة ومن ذلك الشعب ، هو وحده الرسول المعبر . وانت اذا حكمت على الامة عن طريق افرادها لا تكون مفتاتا ولا ظالما ، لان نشأة اولئك الافراد كانت فى تلك البلاد وعنها صدروا . وفى نظرنا ان اصدق الافراد فى التدليل على الوسط رفعة وضعة ، ضعفا وقوة ، هم الاطفال لانهم صفحة

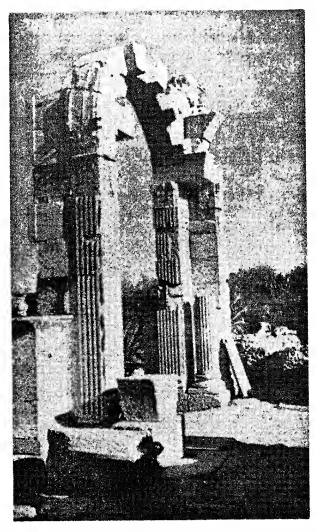
ناصعة تنعكس عليها احوال بيئتهم . ومن هنا كان انطباع الباشوات على المغرب انطباعا ترك آثاره فى اعقاب التاريخ ، لقد كان « ولد سيدنا » فعلا مثالا لحسن التربية وكمال الادب وشهامة المنبت .

مغادرة طرابلس

نعم لقد غادروا مدينة طرابلس زوال يوم السبت الثامن من رمضان المعظم (17 مارس) حيث مروا بقرية الهنشير حيث الولى الصالح سيدى محمد الصيد ، ومن هناك على الطريق الشرقية المؤدية الى مدينة تاجوراة بلدة الامام الحطاب التي استقبلت بدورها الركب بحفاوة ، ولقد زار الامير سيدى محمد الجامع الاعظم الذى شيده مراد باشا ، فى تصميم قلعة ليكون مسجدا وحصنا فى الوقت الواحد ، هذه المدينة التى ينتسب اليها طائفة مهمة من العلماء الذين عرفنا اسماءهم فى تاريخ جامعة القرويين بفاس .

ومن تاجوراء الى مرحلة اخرى على مقربة من وادى الرمل ، فوادى المسيد ، فى هذه المنطقة التى عرفت بقصر صيفان وضريح سيدى شهوان . . وعرفت كذلك بوفرتها على شجر العشر (الخرفع) الذى يستعمل كمادة لحراق ، ومن وادى المسيد اتجه الركب الى جبل النقيزة وهى منعرجات خطرة ومصاعد لا تخلو من وثبات ونقزات . ومن هذه الآكام العذراء الى مدينة (الخمس) الى سلحل الاحامد ، وقد اقتضت هذه الاراضى من الركب الاميرى مرحلتين اثنتين .

لقد كان الوصول الى مدينة « لبدة » الاثرية التى جعل منها (SEVERUS) سفيروس لبدة العظيمة ، وصلوها يوم الخميس الثالث عشر من رمضان (22 مارس) . ومن الطريف ان نستمع الى وصف ممتع لهذه المدينة القديمة التى تكون مع صبراته واؤيا المدن الثلاث على ما عرفنا . لقد وقف الركب الاميرى عند لبدة وشاهد التماثيل الرائعة ، ولم يفت الزائرين ان يبدوا اعجابهم بالحسن والجمال اللذين تمتاز بهما معالم لبدة .



اذا ذكرت المدن الاثرية الهامة فى العالم فان مدينة لبدة تفرض مكانتها فى الصدارة وذلك لعراقة حضارتها وشهرة آثارها التي توارثتها البشرية عبر رحلة الاجيال المتعاقبة ، لقد لفتت انظار سكرتير الرحلة فوصفها بأجمل الاوصاف ؛ هذا منظر واحد من عشرات المناظر التي تستوقفك وانت ترحل فى أغوار التاريخ القديم ؛ على بعد 124 ك. م. شرقي طرابلس

ومن هذه المرحلة اتجهوا نحو قرية الدفنية . وفى يوم السبت منتصف رمضان كانوا على موعد مع مدينة مصراته حيث ضريح القطب الاشهر الجامع بين الشريعة والحقيقة ابى العباس الشيخ سيدى احمد زروق الفاسى البرنسى .

هنا فى مصراته الجميلة الباسمة ، بلاد البشريات والبركات . اخذ الركب راحته وعاشوا مع ذكرياتهم وتضرعاتهم داخل الضريح وكان الامير الصغير طبعا فى صدر الزائرين وصدر الداعين والمتوسلين ، وقد افرغت الخلوة التى يستريح فيها الشيخ زروق فزارتها الجدة المباركة ام السلطان مولانا عبد الله ، واطلت فى العبادة والتبتل .. انك تشعر فى الروضة الزروقية بنوع من الانقياد والاطمئنان . وانك لتشعر بالرغبة المتجددة فى البقاء طويلا مستعرضا حياة الرجل بما ضمته من اعمال وامجاد ، وكيف ان الواجب المقدس دفع به من بلاد المغرب ، مدينة فاس ليعيش فى ضواحى هذه المدينة مكتفيا بالماء القراح الذى يجود به بئر المسجد الذى اتخذ منه مدرسة ومسكنا ومجمعا ، مكتفيا بالمتعة التى يجدها فى نشر العلم ، وتأليف الكتب . ومن يعرف بقدر هذا العالم غير الاميرة العالمة السيدة خناثة ؟ لقد اغدقت على اهل الزاوية من الفقراء والمساكين بما يتقبله الله منها واجلست الى جانبها ذاك الامير الجليل الذى كان لها نعم الانيس فى هذه الرحلة وتضرعت الى الله ان يلهمه طريق الصواب .

وقد استمعت الملكة والى جانبها الامير الصغير — من وراء الحجاب — الى نصيب من الدروس الحديثية من صحيح الايام البخارى فى اثناء مقامها هنا حول كتاب الحج . لقد كان الركب اتخذ عادته الدرس كلما استراح فى مرحلة لكنه فى طرابلس وفى مصراته كان انشط ، منه فى المراحل التى مرت . الحديث عن زروق كله متعة وكله غذاء للروح ما احوج الناس اليه . عاش الناس هنا مع التراث الضخم الذى خلفه زروق ، مع مؤلفاته ومخطوطاته ، وعاشوا الى جانب ذلك مع المتخلف الهزيل والهزيل جدا الذى تركت من حطام الدنيا ! انه من العقوق للتاريخ ان يصل المرء الى ليبيا ثم لا يؤثر هذا الرجل بالتذكر والترحم ، ومن العقوق للاسلام ان لا نمجد هذه الوسائط ، هذه الجسور المقدسة التى

لو لم تكرم العناية الالهية بها هذه الديار لكنا فى عـــداد الاعاجـــم . ان الشيخ زروق ليس عرفا بالله فحسب ولكنه عالم متعمق متقعر ، وانه لم يعد ممن تعتز بهم مدينة فاس فقط ولكنه امسى محل اعتزاز من سائر اطراف العالم الاسلامى من غربه الى شرقه . ولاجل كل هذا لا غرو ان نرى الركب الملكى يتملى من هذه الحضرة المباركة طويلا .

ان مصراته تعتبر المرحلة الاخيرة التى يودع فيها المؤمنون عمران طرابلس وهم يقبلون منها على ربوع عارية خالية فلهذا كانوا يجدون فى التضرع امام ضريح زروق وفى الابتهال لديه نوع زاد روحى قوى يشحذ من عزيمتهم نحو اجتياز تلك الفيافى .

ومن مصراته الى قصر احمد . ومنه الى بوشعيفة ، ومن هذه الى متصرفية سرت ، تلك البرية التى تبـــتدىء من حســـان الى مـــا وراء الاحمر (1) هذه البرية التى تحمل اسما على غير مسمى فى نظر البكرى والتى دعا عليها منذ تسعة قرون

يا سرت لأسرت بكل الانفس لسان مدحى فيكم اجرس ! .

سرت التى يظهر أن عناية السماء لم تستجب للبكرى فى شأنها . وانها — اى العناية — نثرتها بالخيرات والبركات ، انها تحتوى اليوم على زهاء خمس عشرة منطقة امتياز للنفط ، وان هنا اكثر من اثنتى عشرة شركة من زهاء احدى واربعين تعمل فى مجموع التراب الليبى، ان خليجسرت هو الذى يحتضن اليوم ثلاثة موائن بترولية من خمسة تتوفـــر عليهـــا ليـــبيا ، سرت هذه التى جعلت من عام 1968 سنة اوج فى تاريـــخ البترول الليبى الذى يحظى بأكثر من ميزة (2) .

* * *

لقد قضت القافلة اياما فى طريقها نحو مدينة اجدابية فمن السبخة او الشبكة كما يرسمهـــا الاسحاقى الى شـــرف حســـان . الـــى وادى

(1) الناصرى احمد 1 ص 104

(2) FRANK J. GARDNER : LIBYA EYES N° 1 PRODUCER RANK THE OIL AND GAS JOURNAL, MARCH 25, 1968 Page 95, 96, 98, 99.

القبيبة . الى العلاندابة ، ثم معطن النعيــم حيث تــزود الركب الاميرى بالماء الضرورى لقطع مراحل خمسة ايام . ثم وادى مسعودة ، ثم قضوا المرحلة الموالية فى قصر عطيش ثم فى معطن بفلاة واصلوا السير بعدهـــا الى مقطع الكبريت ثم الى مقطع الصبيحات ، ثم مرتفعات زغبة . ثــم بئر بالجديد ثم المدينة المشهورة اجدابية بلد الامام سحنون قبل ان يلتحق بافريقية ، والارض التى ينتسب اليها الشيخ ابو اسحاق الاجدابى العالم والمؤلف . الذى تلقى دراسته فى طرابلس على الائمة سواء منهم المقيمون او العابرون اجدابية التى كانت معبر العرب عند فتحهم لافريقية ، هنا فى اجدابية احتفل الركب المكى بعيد الفطر الذى اهل عشيــة امس السبت التاسع والعشرين من شعبان . ولم يسمح الركب لنفسه بأخذ نصيــب من الراحة لان مجاهل برقة كانت ما تزال امامه . وهكذا اخذوا طريقهم منذ عشية هذا اليوم الاحد ، انها بداية برقة ، الغول الذى ارتفعت عقيرة سائر الحجاج بالشكوى من شبحه المخيف . لا بــد ان يكتسب الذيــن عبروا فى الذهاب والاياب خبرة زائدة بقيمة الحياة والحرص على الدنيا . لقد كان اجتيازها يوازى ارتياد الفضاء الخارجى الآن (1) .

هذه برقة او (انطابلس) (PENTAPOLIS) اى المــدن الخمس كما تسمى فى القديم : تورينا — ابوللنيا — توكيرة — طلمــيثــة — يوسبيريدس ، هذه برقة التى حير تحديدهــا المؤرخــين والجغرافيــين بقدر ما دوخت الحجاج والعابرين ، اشتكى العبــدرى من فيافيــهــا ، وندب البلوى حظه فيها ، وصورها العياشى كظل قاتم ، وتبع هؤلاء من ورد بعدهم . نعم لقد اتجه الركب نحو قريــة الزحيحينة ، ومنهــا الى نقطة سلوق المعروفة . ثم دخلــوا على وادى البــاب المــؤدى الــى « السروال » : المفازة التى تقتضى من القاصدين زهاء الستة ايام .

ولا بد ان نلفت النظر قبل ان نرافق الركب فى طريقه لشرق البلاد الى ان هناك سبيلين اثنين للوصول الى طرف البلاد الشرقى . هنـــاك الطويل الآمن نسبيا ، المستأنس الذى هو طريــق الجبــل الاخضــر حيث يتم المرور بمرسى بيغازى ليقطع منعرجات ومرتفعات الجبل الاخضر،

(1) — جيمس ويللارد ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ص 5 .

وهنـــاك الطريـــق الثانى : طريـــق الصحراء المختصر المخطر الموحش المعروف عند الحجاج باسم « السروال » حيث توخـــذ الطريق مباشرة من سلوق الى المخيلى . عبر وادى مسوس ووادى سمالوس ، وهـــذه لا يمكن لأى ركب ان يسلكها الا اذا كان ركبا مثل ركب الاميـــر والاميرة الذى يتوفر على جيش قوى مدجج بالسلاح ، على مؤنة غذائية كافية ، وبالتالى على رواد مهرة يتقنون آكام وتلال واودية وشعاب هذا السروال الشائك ! انه طريق الواثقين من قوتهم المعتدين بمذخراتهم ، انه المسلك الذى كان يحمل وما يزال ــ اسم مخاصر ابن كاشير (1) وليـــس مـــن قبيل الصدفة ان يكون هو الطريـــق المستعمـــل من قبـــل المجاهديـــن الليبيين فى تزودهم بالميزة من السلوم ، وكذلك الطريق الذى انسابت منه المدرعات البريطانية فى حرب يبراير 1941 لتنـــزل الضريـــة القاصمة بالوجود الايطالى الذى أمن هذا السبيل !

لقد وصلوا بعد اجتياز هذه المراحل الى قصر المخيلى . كل هـــذا السروال يقع فى صميم الصحراء جنوب الجبل الاخضر ، جزء منه تابـــع اليوم لمحافظة بنغازى وجزء لمحافظة مدينة البيضاء ، والثالـــث لمحافظة درنـــــة .

وبعد المخيلى كان المبيت فى منهل التميمى على مقربة من مدينة درنة حاضرة البحر حيث تنعقد الاسواق الخاصة بالقاصدين . لقـــد اعتادت (درنة) تزويد ركب الحاج بما يحتاجه من المواد . ولعل من طريـــــف الاستطراد ان نعرف ان درنة كانت مما يستهوى العـــدد العديـــد من الحجاج بل والمهاجرين من الاندلس لاختيارها محل اقامة دائمة .

ومن التميمى راحوا الى (عين الغزالة) حيث يوجد على مقربـــة منها خليج يظهر على الخرائط الكبرى لسانا ممتدا من البحر المتوسط فى الارض ، هذا الخليج الذى كان ابو سالم العياشى يعتقده ضاية منفصلة عـــن البحـــــر (2) .

---

(1) هذا غير الطريق المعروف بطريق العبد ، او طريق ابن غنية .ومخاصر معناه طريـــق مختصر ، وابن كاشير اسم عبد كان يتجر فى الكبريت له خبرة قوية بمعالم الطريق . راجع رسالة العياشى الى المكيلدي . ص 310

(2) العياشـي : الرحلة ص 102

وتعرف كل هذه النواحى باسم البطنان أو بالتعبير اللاتينى (MARMARICA)

وبعد هذه المرحلة اتجه الركب حيث تضى ليلته فى فلاة على مقربة من الشجرة المعروفة هناك بشجرة النبع ، ومن هنا تحولوا الى دقنة جنوب مرسى طبرق التى تردد ذكرها لدى جل الرحالة الذين قصدوا الديار المقدسة من امثال ابى سالم العياشى وابى عبد الله التازى .

وعند الأوبة ..

بالرغم من أن القسم الثانى من رحلة الاسحاقى مفقود بل انه غير مكتوب فيما اعتقد بالرغم من ذلك فان هناك بعض الاشارات القصيرة والدقيقة فى الوقت نفسه تعطينا فكرة عن الاستقبال الحار للاحتفاء بالامير الذى نشأ فى عبادة الله ، وزار اشرف بقاع الاسلام منذ هذا التاريخ المبكر ، فكرة كذلك عن التاريخ الذى كان الركب الاميرى يقيم فيه بعاصمة البلاد آنئذ .

لكأنما كان الشرقى الاسحاقى يكتب رحلته وهو يشك فى انه يتمكن من انهائها . لقد كان فعلا طاعنا فى السن وكان يشتكى من داء الرثية : (الروماتيزم) فيما يتأكد لى . لاجل ذلك اغتنم فرصة وصفه لحرارة اللقاء الاول وبهجة الاستقبال الذى خصص لقافلة الشريفة وهى فى طريقها الى بيت الله ، اغتنم ذلك ليجمل الكلام عن وصف احتفالات الباشا احمد القرمانلى بأوبة الركب ، ونراه يقول « . واحتفل الباشا فى ضيافة ولد سيدنا نصره الله مع امه اعزها الله غاية الاحتفال فما ترك شيئا من أنواع المؤنة والعلوفات وسائر المرافق الا احضره ووقف لدفعه خدامه واعوانه الموكلين بذلك ، وهذه عادته حتى انفصلنا عن البلد مشرقين وكذلك حين خيمنا على طرابلس مغربين جزاه الله بالخير فقد قام تأداء الحقوق قيام الحر لا المرقوق وانما يعرف ذا الفضل ذووه ولا شك أن البادى اكرم . »

وهكذا فيمكن للمرء أن يستعرض امامه — على الاقل — جميع مظاهر التبجيل والتكريم التى تمت فى المناسبة الاولى . نقول على الاقل

لان هناك مميزات اخرى اكتسبها الركب وتقتضى منـا نحـن المسلمين اعتناء اكثـر واحتفاء اكبر ، تلك ان الركب عاد من بيوت مقدسة مغفور الهفوات طاهر النفوس .

وكما اجمل الاسحاقى الكلام عند هذه العودة الميمونة فكذلك كـان الامر بالنسبة للمؤرخ الليبى ابن غلبون فى كتابه (التذكار فيمن ملـك طرابلس وما كان بها من الاخبار) . فقد اختصر الكلام معتمدا على الوصف المقتضب الذى قدمه لايام مقام « حرم امير المؤمنين مولانا اسماعيل وابن ابنها مولانا امير المؤمنين ، اكـرم مثواهـا وكفاهـا مـدة اقامتهـا ما تحتاج اليه من مأكل واسكنها عرصة فسيحة واقام من الخزانة كافة ما تحتاج اليه دوابها وخدمها . الى ان خرجت من طاعته ونعمه شاملـة لها ، وكذلك فعل بها لما قدمت سنة اربـع واربعين ومائـة والـف . » والامر كذلك بالنسبة لابى القاسم العميرى قاضى الركب الاميـرى الذى اشار لهذه الاوبة بالصدفة عندما كان يتحدث عن مصنف الحافظ التوزرى الذى شرح به قصيدة الشيخ الشقراطسى والذى وقف عليه فى مدينـة طرابلس . حيث حكم على نفسه بالبقاء فى بيته لانتساخه لمكتبته الخاصة ، ولكنا فى هذه الاشارات العميرية اهتدينا للايام التى قضاها الركـب الملكى فى مدينة طرابلس ، وبالتالى ليومية الوفد منذ دخوله التراب الليبى منتصف رجب 1144 (15 يناير 1732) الى ان دخل طرابلس يوم الاثنين 21 شعبان (18 يبراير) الى ان ترك الحدود الليبـية يوم رابع رمضان (1 مارس) مارا على نفس المراحل ونفس الطريق الاولى . اما المصادر القنصلية الاجنبية فنحن نعلم من ان القنصليات عنيت عنـاية خاصـة بزيارة الامير الصغير لطرابلس صحبته جدته زوجة السلطـان المولـى اسماعيل . ان اسم اسماعيل معروف منقوش فى اذهان الملوك وممثليهم فى الدول الاخرى . نعم لقد رفعت تقارير وصفية دون شك لهذه الزيارة ، ويدلنا على ذلك هذه الرسائل التى كتبتها المس توللى (MISS TULLY) اخت المستر توللى القنصل البريطانى او شقيـقه زوجته وقتئـذ (1) . فقد اشارت لها فى رسالتها بتاريخ 20 ابريل 1784 . فبعـد نحو نصف قرن من الزمن لم ينس هذا الحدث الهام ، ولذلك نـرى الميـس توللى

---

(1) الدكتور مصطفى بعيو : مصادر التاريخ الليبي القسم الاول ص 71 – 72 – 73



بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
من عبد الله محمد بن عبد الله كان الله له آمين

1202

بعث جورج واشنطن اول رئيس للولايات المتحدة الامريكية سفيره طوماس باركلي الى الملك محمد الثالث يطلب اليه ان يبذل مساعيه الحميدة بين طرابلس وأمريكا ، وهـذا جـواب العاهل المغربي على سفارة الرئيس الامريكي ٭ وهو بتاريخ 15 ذي القعدة 1202 هـ (17 غشت 1788 م) يعـده بالتدخـل لصالـح السـلام ...

صورة من الكتاب الصادر عن اذن ربة الدار العلية بالله السيدة الحاجة خناثة بنت بكار الى خدامنا اهل وجدة سلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته ... وبعـد فقد عرفنا محبتكم ونصيحتكم لمولانا أمير المؤمنين فمن تعرض لكم فلا يلومن الا نفسه سواء كان قريبا او بعيـدا ... الرسالـة بتاريـخ 13 محـرم 1149 = 24 مايـــه 1736 م

الاميرة على اثر هذا الامتحان شعبية رددتهـا رحاب التاريـخ ، وكانت بداية لحركة فاصلة ضد من اعتقلوها بالامس (1) .

ولا بد فى هذا الصدد من ان نعلق على رسالة بعثت بها الى : اهل وجدة بتاريخ 13 محرم 1149 (24 ماي 1736) .

ان مكتوب الاميرة يحمل كل الدلائل على انها كانت تقوم بدور كبير فى تسيير دفة الحكم بالمغرب ، فالرسالة تلح على مناصرة الملك المبعد وتمنى المواطنين بانفراج وشيك حتى تقوى بذلك معنويتهم : « لا يهمكم شىء فقد عرفنا محبتكم ونصيحتكم لمولانا امير المؤمنين فلا يضركم فعل السفهاء فيد الله وايدينا فوق ايديهم . ولا تخشوا من احد سواء غربتم او شرقتم ، ومن تعرض لكم فلا يلـوم الا نفسه سـواء اكـان قريبـا او بعيـدا . »

وقبل طابع الاميرة وخاتمها عبارة « عن اذن ربة الدار العلية بالله » ،، ولا بد ان يربط المرء بين هذه الرسالة ، وبين رسالة اخرى كتبتـها الاميرة عن ملتمسات هذه الناحية الى ولدها وهى فى طريقهـا للحـج ، فهى اى هذه الرسالة تذكير بعهد سابق اخذته منهم . ولا بـد كذلك ان نعيد الى الاذهان ان سنة 1149 — وهى تاريخ الرسالة — لم تكد تنته من عاد المولى عبد الله الى عاصمة ملكـه مكناس ، لكن هـل استراحـت المـكة هـذه المـرة ؟

لقد شهدت البلاد ضائقة مالية خانقة ، وهكذا عادوا مـرة اخرى الى الاميرة خناثة التى تستأثر وحدها بمفاتيح الكنوز والاسـرار . وفى هذه المرة كان الاعتداء غير مباشر اذ انه استهدف سنة احدى وخمسين ومائة والف احد الذين يشتبه ان تكون الاميرة استودعتهم بعض الاموال بحومة (كرنيز) من مدينة فـاس .

وتنتصر من جديد ويعود ولدها السلطان مولاى عبد الله للحكم ، وفى هذه المرة نراها حريصة على ان تستدر عطف ولدها على بعض فرق

(1) الضعيف ، مخطوط ص 96 — الزياني الروضة (80) ، استقصا 17 ، 137 ابن زيدان ، الاتحاف 5ر444

الجيش ممن يمتون بصلة قوية الى قبيلتها (المغافرة) املا منهـا فى أن تتقوى الدولة بهم لاعادة الاطمئنان للبلاد . وقد قامت فى هذا الصدد بدور هام سنة 1153 مع قادة جيش الودايـا والمغافرة الذيـن تطارحوا على اعتاب السلطان . وتقبل العاهل هذه البادرة منهم بالعفو والتكريم ، لكن هل استراحت الاميرة وقد قطعت من عمرها ثلاثة ارباع القرن ؟

لقد قررت أن تعتزل الحياة السياسية الى الابد ، وهكذا اختفت فى جنح الليل من مكناس العاصمة الى حيث الانقطاع الى الله . الى قصرها برأس الماء بضواحى مدينة فاس فى ثلـة من خدامها الاوفياء الانجـاد ، هناك حيث اجل اهل فاس مقدمها وتهافتوا على تقديم الخدمة اليها .

المـــرأة المحســنـــة

واذا التفتنا الى زاوية اخرى من حياة هذه الاميرة ، ناحية الاحسان والبذل والسخاء فسنجد انفسنـا امام سيـدة تستمرىء العطـاء لـه وتستعذبه ، ولا يسعدها الا الوقت الذى ترى فيه البسمة تشـع على ثغور المساكين والمحتاجين ، لقد نشأت فعلا بين أسرة فاضلة ، شعارها الجود والكرم ، وبحكى شاهد عيان عن شقيقها الشيخ محمد بن بكـار انه كان ذا وفرة جمة على عادة العرب ، ما رايت — يقول الاسحاقى — اجمل ولا اجود منه ، كان مولانا يعطيه العطايـا الجزيلـة لكنـه كان لا ينهض من مكانه حتى يفرقها جميعها . وخناثة شقيقة الشيخ محمد تن بكار فلا غرو اذن ان تكون قبتها الخضراء بمكناس كعبـة القاصدين ، ولا غرو ان تستميل قلوب الناس فى مختلف جهات المملكـة . واذا كانت الاسفار من اهم ما يبرز طباع الشخص فى وصفها الحقيقى ، فان تحركات الاميرة خناثة من اقصى المغرب الى اقصى المشرق كانت خير دليل على ما نقول ، فقد كانت تعطى عطاء من لا يخشى الفقر كما يشهد بذلـك الذين رافقوها . وكانت تنثر رجال العلم ، ورجال الادب ، ذات اليمين وذات اليسار ، ولقد روى عنها انها آثرت اشراف الينبع بعطايا فاخرة ، وهدايا سنية لم يعرفوها من ذى قبل وكستهم بانواع الثيـاب الرفيعة علاوة على المبالغ النقدية الذهبية الباهضة . كما روى عنها انها اغدقت بخيراتها على سائر رجال الفضل بمكة المكرمة ليلـة فتح البيت المبارك

خصيصا لها من لدن شريف مكة . الامر الذى ظل احدوثة ينعت بها المغرب على الدوام ، وقد دفع بها حب الخير الى اقتناء عقار بمكة يقع فى اشرف بقعة بما يناهز الالف مثقال ذهب مطبوعة ، حبستها على جماعة من المقرئين والطلبة وكتبت بذلك حجة للمعنيين بالامر وعينت ناظرا ليسهر على ريع الوقف وتوزيعه .

شهادة من مقام ابراهيم

لقد كان لحجة الاميرة خناثة صدى كاد ينسى سدنة مكة حجة زبيدة زوجة هارون الرشيد . فلا حديث الا عن ذلك التبتل لله اثناء الليل واطراف النهار ، ولا حديث للناس الا عن هذه العربية العريقة التى ضربت المثل لزوار بيت الله فى كل منقبة وفى كل محمدة ، وقد اثار صنعها شاعرية امام المقام الابراهيمى الشيخ محمد بن على الطبرى (1) . فنظم رائية طويلة يسدى فيها بعض الجميل لما شاهده ، وصدر الشعر بقطعة نثرية مسهبة كانت بمثابة سجل مختصر اودع فيه انطباعاته حول هذه الزيارة التى قامت بها سيدة من اكرم سلالة ، ليلة السادس من ذى الحجة بعد العشاء حيث دخلت مكة وعليها السكينة مرفوفة ، ممتطية عجلتها فى محفل عظيم من الاجناد وجمع من الاجواد . فطافت طواف القدوم ثم طلعت عرفة ولموكبها دوى بالتسبيح والتقديس وكانت الوقفة يوم الخميس . ثم نزلت الى منى ثم نفرت الى مكة وجاءت بعمرة الاسلام فى جنح الظلام ، ورحلت الى دار مملكتها والكل الى صنيعها شاكر ذاكر . رسالة طويلة اختصرناها وفى اعقابها اتى بقصيدته :

غنى على عود السعود هزارى — وشدا على الاوتار بالاوطار

والانس طاب لنا بأوقات الهنا — بسلامة الحجاج والزوار

لا سيما بسلامة الست التى — حظيت ببيت الله والاستار

---

(1) كان الشيخ الطبرى من الشخصيات المحترمة جدا فى المقام الابراهيمي وكان مهيب الطلعة وفى اخر عمره كان لا يخرج الا مرة واحدة فى السنة هـي ليلة القدر ، ليحيي الليلة ويختم القرآن ، له مطبوعات عدة منها تفسير القرآن فى ثلاث مجلدات .

فلها المنى بوصال من قد جاورت — والاكرمون يرون حق الجار
ماجت بها أرجاء مكة رغبة — ومحبة من سائر الادوار
وهى الحقيقة بالجلالة فى الورى — وجلالة الاضياف ليس بعار
والله قد القى عليها دائما — حسن القبول كشيمة الاخيار
وهى الحليمة والكريمة ، مالها — فى الجود شان مثل غيث جار
ولها كمال وافى مع عفة — ولها حياء فاق فى المقدار
فالله يحملها بحسن رعاية — منه الى مكناس بالاوطار
ويحفها بسعادة وسيادة — من كل سوء ماضى أو طارى
وعلى النبى وآله وصحابه — صلى وسلم ذو الجلال البارى
ما غردت ورق الرياض بدوحها — وترنمت فى سائر الاسحار

نهاية الاميرة

واخيرا وبعد عمر طويل حافل . طويل باحداثه المتلاحقة ، حافل بأيامه الظافرة الغراء . عرفت فيه المقاعد الوثيرة والكراسى الاثيرة كما عرفت فيه المعتقلات بظلامها ووحشتها . بعد عمر طويل حافل اسلمت الروح الى خالقها بالمدينة البيضاء فى فاس فى خامس جمادى الاول من عام 1155 عن سن يناهز السابعة والسبعين ، ودفنت فى نفس المقبرة التى تضم الحرة المصونة لالة مباركة بنت بـرك المغافرى الوذى والدة السلطان المولى اسماعيل ، وتضم كذلك جدث ولدها السلطان المولى عبد الله وجدث السلطان المولى يوسف ولالة الياقوت والدة سيدى محمد الخامس (1) . لقد حزن عليها ولدها السلطان المولى عبد الله حزنا كثيرا ، وبعث فى السنة الموالية ركب حجيج مهم اصحبه بثلاثة وعشرين

(1) لقد تفضل الباشا الاخ المولى الحسن العلوى فبعث الي بصورة للوحة الرخامية للسيدة مباركة ، واعرب عن اسفه على ضياع رخامة الاميرة خناثة اثناء قيام الأحباس باصلاح الضريح فى السنين الماضية .

مصحفا محلاة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت كان من بيـــنها المصحف الكبير العقباني الذى توارثه الملوك بعد المصحف العثماني . وكان ذلك برسم الترحم على والدته التى زارت تلك الديار منذ اعوام .

لقد ماتت خناثة لكن جهادها لم يضع ابدا ، فقد فتحت مواقفهـــا المشرفة عيون حفيدها ورفيقها فى الظعن والاقامة بل وفى السجن كذلك ، فتحت عيونه على ما يجب أن يكون عليه الامر . فكان منـــه محمد الثالث الذى عرف المغرب فى عهده أيامه الغر الخالدات .

الامـــيـرة لالــة خــنــاثــة

والرسم بريشة الفنانة الاسبانية أميليـــا ر . ف . المعروفـــة بلوحاتهـــا الشهيرة ، وقد عاشت فى الصحراء المغربية وقد نشر أول الامر فى مجلة

(المغرب) لوزارة الشؤون الخارجية عدد مايو 1963

الكاتب الاسحاقي

يعتبر الشرقى الاسحاقى من رجال الثقة الذين اعتمدهم السلطان المولى اسماعيل فى اعقاب الحملة التاديبية التى قام بها الجيش ضد تمرد جبل فازاز (1) سنة 1104 فهو ينتسب لآيت اسحاق (2) احدى قبائل آيت أومالو الواقعة فى الجبل . وقد كان ضمن الشهود على عقد الموالاة الذى تم بين الاميرين الاخوين احمد وزيدان ، والذى أمر بـه السلطان المولى اسماعيل فى منتصف رمضان من عام 1137 .

اسمه عبد القادر الجيلانى هكذا ، تيمنا باسم صاحب بغـداد ، لكنه يعرف بالشرقى الاسحاقى ويكنى أبا محمد وابا الفضل (3) وسماه

---

1) الزياني : الروضة مخطوط صفحة 8 . الناصرى : الاستقصا جزء 7 ص 79 ، 80 ، 81 ، 85

2) قبيلة آيت اسحاق تتبع اداريا اليوم قيادة القباب (دائرة خنيفرة) عمالـة مكناس وتشتمل علـى خمسـة بطـون ، آيـت وعقـا ، آيـت واومانـة وآيـت اسماعيـل وآيت تناسسات آيت ازدوندين اكبر قرية فيها زاوية اسحاق ، دليل قبائل المغرب ص 478 . محمد حجي الزاوية الدلائية ص 37

3) ابن زيدان ، اللطيف ، مخطوط ص 254 ـ 262 .

الشيخ الطبرى فى اجازته بمحمد الشرقى بن محمد الاسحاقى . وقد نعته ابو عبد الله محمد بن الطيب بن عبد السلام القادرى فى كتابه نشر المثانى او الازهار النادية ، نعته بالكاتب الارفع والاديب اللغوى والنسابة المؤرخ .

مشايخه

واذا كانت المناسبة لم تمكنه من اعطائنا لائحة لمشايخه بالمغرب وخاصة بمدينة فاس فانه على كل حال قدم الينا طائفة من الاساتذة الذين اجازوه بمكة المكرمة من امثال الشريف الحسينى والسيد عمر البار والسيد محمد بن احمد عقيلة ، والشيخ محمد الطبرى شيخ المقام الخليلى والاديب عبد الله بن يحيى ، والشيخ زين العابدين المنوفى وتاج الدين المنوفى وعبد الله السكندرانى . وفى سائر الاجازات التى حملها معه هذا الكاتب الاسحاقى تعترف له بالباع الطويل فيما يحصل عليه من العلوم المعقولة والمنقولة .

روحه المرحة

ومع ان المصادر التى تحدثت عن الاسحاقى تكاد تعد على رؤوس الاصابع فان الاثر الجميل الذى تركه واعنى به الرحلة الى بيت الله كان خير من ترجم له بل وعبر عن مكنونه ، واعطى صورة مدققة لشخصيته .

فقد كان الرجل مشبعا بحب الاسرة المالكة ما فى ذلك شك ، غيورا على بلاده المغرب غيرة تلاحظ بكل يسر وسهولة فيما يكتب ، وهو الى كل هذا معتز بنفسه كثير الاعتزاز لا يكاد يجد فرصة للتعبير عنها الا فعل ، وانت تدرك من خلال سطوره انه رجل حببت اليه النكتة والفكاهة وهو لذلك يتعمد النص على بعض الجوانب التى قد يحسبها القارىء غير ضرورية ولكنه يجد فى ذكرها ترويحا على الناس . لقد وقف يستمع الى سؤال شيخ هرم على ابواب مدينة لبدة الاثرية عن تاريخ المدينة ، وقد استغرب من جواب الشيخ « انها هى المقصودة فى قوله تعالى « أهلكت مالا لبدا » ! وقد رثى لحال مغربى تزوج بمصر قديما :

كان لا بد للعريس هناك ان يحمل زوجته مارا بها لخدرها وهو ينثر على اصدقائه الدراهم ليشغلهم ، فتزوج ذلك المغربى بسيدة هناك وجدهـا سمينة جدا بينما كان هزيل الجسم ، فحار فى امره وكان عليه ان يؤدى مبلغا مهما من المال للتكلفات فدية (1) . وقـد عـفـنا مما كتب ايضا انه كان الى جانب علمه وفضله ذا خبرة بلعبة الشطرنج ، وقـد ذكره تصميم طرابلس بتصميم القبة الشطرنجية بمكناس ، فالماشى فى شوارعها يمشى مشى الرخ لا مشية الفيل ، اى ان المدينة مقسمة تقسيما محكما على الطول والعرض من غير انحراف ذات اليمين او ذات اليسـار

الاسحـاقى الملاحـظ

ولكن الصفة التى لا يمكن خفاؤها فى شخصية الاسحاقى كانت فى الدرجة الاولى نزعته الانتقادية حتى ليكاد فى بعض الاحيان يعتبر فى عداد المبالغين . واظنه متاثرا برحلة العبدرى فى تحاملاته اكثر من تاثره برحلة العياشى فى مجاملاته . لقد ساءه ان يسمع اللحن فى النحو من قاضى عين ماضى ، فلم يتردد ، فى نعته بأنه لا يعرف الفرق بين المستقبل والماضى ! وقال عن شعر مدح اهدى اليه فى مصر : بانه شعر اقرب الى الهجو منه الى المدح . وهكذا استمر غير مبال فى حديثه عن الجهات الاخـرى لا يستطيع بحال ان يكتم ما يشعر به : حمل على تعطيل الحركة العلمية فى بعض البلاد ، وعلى انتشار دور الملاهى فى بلاد اخرى ، وعلـى المراوغة فى المعاملات فى جهة ثالثة . وعندما اجتمع فى المشرق بمختلف الطبقات وعرف عن **المذاهب المنتـشرة** هنـاك سواء فى الفـروع او فى الاعتقاد ، عندما وقف على ذلك لم يتمالك ان يشيد بالحـال فى المغرب الذى لا يعرف غير مذهب الامام مالك فى الفروع ، وغير مذهب الاشعرى فى الاعتقاد محبذا الجادة المغربية التى لا بنيات فيها على حـد تعبيـره . وقد حضر الاسحاقى مجالس العلم بالازهر الشريف ولكنه لاحظ كعادته على مستوى الدروس التى كانت تلقى آنذاك .

(1) عبد الهادى التازى : اعراس فاس طبعة مقالة (المحمدية) ص 10 ـ 32

فى ضيـــافـــة الشيـــخ الحنفى

ويتحدث الاسحاقى عن الدعوة التى لباها لتناول الغـــذاء فى بيـــت رئيس علماء الازهر فى المعقول والمنقول . ولم يفت الاسحاقى أن يلاحظ خلو السفرة من اللحم واقتصارها على العدس وبعض الحوامض مـــــع نصيب من الارز ، وقد اعجبه العدس فأقبل عليه . فلمـــا عرض عليـــه الشيخ الحنفى طبق الارز ام يلتفت له الاسحاقى لان المغاربة لا يعتادون اكل الرز باطراد ، وقد ذكر انه يفضل العدس لان معه مسوغا (يعنى الحوامض) فغضب الحنفى قائلا « جعلت طعامى نكرة تحتاج الى مسوغ فخجل الاسحاقى واجاب ة بل كلاهما معرفة الا ان فى العدس مسوغـــا للابتداء به ، ثم اقبل على الطعام الثانى .

الاسحاقى الشاعـــــر

وقد مكنته رحلته من الاجتماع ايضا بعدد من الادباء تطارح معهـــم شعره . وكان فى هؤلاء الاستاذ زين العابدين المنوفى الذى استدعاه كذلك لمائدة كبرى . لقد كان مما قاله الاسحاقى على وجه التلميح والاقتباس :

يـــــاذا الـــذى عـــذبـــنـــى ... ومـــا درى كيـــف فـــعـــل

جـــدلـــى يـــريقـــك الـــذى ... الـــذ مـــن طعـــم العســـل

ايـــــاك والـــبـــطء بـــــه ... انـــى خلقـــت مـــن عجـــل

وقد سمطها الشيخ زين العابدين فى الحال .

الاسحاقـــــى الفقيـــه

وقد مكنتنا الفرصة من الوقوف على اثر من آثار الاسحاقى فى باب الفقه ، ذلك فتوى حررها بمكة بطلب من الاميرة الجليلة خناثة حول اباحة تملك العقار بالبلد الحرام ، ان هنا جماعة من الناس يرون حرمة بيـــع العقار وشرائه . وهنا كانت الفتوى الجامعة المانعة التى برهن فيها على

اطلاعه الواسع فى مذهب الامام وخبرته الكبرى فى الاخذ بمدارك القوم . وقد ظلت الفتوى بين يدى الملكة ردحا من الزمان تتدارسها ، وتعتبر بحق حجة نادرة ، ومما يتعلق بالموضوع ان القاضى — وهو اصلا من اسطامبول — وضع مسألة عدم انعقاد البيع بين وكيلين : الاسحاقى نائب الملكة . واولاد الفقيه البصرى نائبين عن والدهم ، وفهم الاسحاقى ان القصد الى عرقلة جديدة فى طريق الشراء ، فقال للقاضى : **أما الاشهاد على الملكة استقلالا فلا سبيل اليه** ويبقى امامك ان تبعث بشهودك الى بيت الفقيه البصرى .

الاسحاقى المؤرخ

ولا بد ان لا تغفل هنا بعض المتابعات على الاسحاقى ، وسوف لا نتكلم هنا على مبالغاته فى تصوير بعض الاشياء بل فقط على ناحية ربما كانت تكشف عن عدم تضلعه من احداث التاريخ ، فلقد رايناه يقتصر على نقول من سبقه عند حديثه عن البلاد ، وهذا ليس عيبا فى حد ذاته ولكنه يصبح عيبا عندما يتعلق الامر بتقليد مطلق دون تمحيص ولا اخذ بل وسأقتصر على ذكر مثل يتعلق بتاريخ ليبيا ، فقد نقل عن التيجانى قوله ان طرابلس لم تداهم من قبل الاجانب وكان ذلك بالنسبة للتاريخ الذى كتبت فيه رحلة التيجانى صحيحا ولكنه بالنسبة للتاريخ الذى كتب فيه الاسحاقى رحلته غير صحيح . وهكذا تجلى انه لم يكن على اطلاع على تاريخ ابن خلدون ورحلة ابن بطوطة مثلا .

وفاته

وقد توفى الاسحاقى بعد ايابه من الحج اثر الخمسين ومائة والف ، ويتأكد لدينا انه مات قبل ان يتمم تحرير رحلته فانه كان يشتكى وهو يزور الشيخ رزوق من وجع فى الركبتين كان يعانى منه الامرين منذ اعوام خلت (1) .

---

(1) القادري : النشر او الازهار المخطوط ص 136 ، عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب 1 ، 275

عديـل شيـخ الركـب

اقترن اسم بيت « عديل » الاندلسي الاصل في بدايـة تاريخ الدولة العلوية باخبار ركب الحاج الرسمي ، فقد أسندت رئاسة الركب الحجازي لعدد من افراد هذا البيت ، فعلاوة على يحيى الشاوي وعلى الذئب ، ومولاي عمر والشيخ الدكروج والحاج محمـد المراكشي والحـاج محمد القيسمي والحاج ابراهيم الفران والحاج عمران والحاج بن مومى ومحمد صنايرة ، علاوة على ذلك برزت أسرة عديل ، كان والدهـم هذا مـن عيون التجار والامناء بفاس وما تزال الدار المنسوبة اليهم معروفة بمدينة فاس . تدرج والدهم في الرتب العوالي وانحاش لخدمـة المولى اسماعيل فولاه النظر في النيابة عن بيت المال والتصرف في المراسي وغيرها . ثـم ولاه امارة ركب الحاج . وبعده تولى ذلك ابناؤه وابناء اخيه : الشيخ عبد العزيز ، والشيخ الخياط ، والشيخ عبد القادر ، والشيخ الشاوي وكما اشتهروا بالمغرب اشتهروا عبر طريق الحاج ، وقد استشهد احد افراد هذا البيت وهو الشيخ عبد القادر ، في بنـدر من ارض الحجاز . كمـا سار احدهم وهو الشيخ الخياط في سفارة مهمة الى الآستانة (1) عـام 1175 ، اما الحاج عبد الخالق (2) شيـخ الركب الذي يراسـه الامير الجليل ، فقد تحدث عنه سائر الحجاج بلسان جميل وقالوا : انه كان يجد متعة في اسداء الخدمة للناس ومباشرة صغيرهم وكبيرهم لا يكـل ولا يمل ، الى حسن خلق ولين جانب وخاصة مع الضعفاء والقاصرين . ولم يكن وظيفة شيخ الركب مقتصرة على خدمة الحجاج . ولكـنه كـان يتعداه لاداء الامانات والتحف ، والمحفوظات للشخصيات التي اعتادت الارادة الملكية ان تصلها كل سنة في المشرق من العلماء والاشـراف والاخيار علاوة على الهدايا السنية التي كان الملوك المغاربة يبعثون بهـا للحكام والقواد في اثناء الطريق .

وقد تولى الشيخ عبد الخالق عمالة مدينة فـاس بعـد ان تعرض لامتحان عابر . وتوفي وهو يقوم بمهمة في طريقـه الى فـاس في 23 ذي القعدة عام 1158 ودفن بزاوية سيدي عبد القادر الفاسي .

---

(1) ابن زيدان : الاتحاف ، ص 298
عبد العزيز ابن عبد الله : المعجم التاريخي ص 36
(2) ابن زيدان : الاتحاف 480

ابـو القاسـم العميـــرى

هو قاضى الحضرة المكناسية ، وابن قاضيهـا سعيد ابـن ابـى القاسم العميرى (بفتح العين) نسبة لبنى عمير فرقة من تادلة .

كان علامـة محققـا ذا قـدم راسـخ فى الفنـون العقليـة والنقلية ، حسن الاخلاق طيب الاعراق . ولد بفاس بعدوة القرويين 25 شعبان سنة 1103 واخذ هناك ثم انتقل به والده لمكناسة الزيتون فنشأ فى عزة بيت مثقف متعلم ، فعلت مكانته وولاه السلطان المولى عبد الله خطة القضاء بمكناس ، وقد كان هو قاضى ركب الاميرة الجليلة بمـا صحبه من اعلام ووجهاء واعيان .

وقد قـام بوظيفتـه كقـاضى حتـى وهـو فى طريقـه الـى البقاع المقدسة ، ومن طريف ما اثر عنه فى هذا الصدد انه احتكم لديه فى بسكرة رجلان من أعراب هذه الناحية فى فرس اراد المشترى منهمـا الرجوع على بائعها بالثمن لانها هلكت بعيب اقدم من امـد التبـايع ، واحضر بينة على ذلك فأمره القاضى ابو القاسم بتزكيـة بعض شهود البينة فتصدى الشيخ ابو الضياف حاكم المنطقـة مزكيـا بعض شهـود البينة قائلا : نحن نعرفه رجلا من خيار قومه لقد أغار معنا على العرب كم وكم مرة ، فاستغرب القاضى التناقض بين عنصرى التزكية واستنكر بصفة خاصة ان تكون الغارة على العرب مما يمدح ويزكى به !

هذا ولم ينس العميرى مهنته كمؤلف ولذلك فقد انتهز وهو بمدينة طرابلس عند ايابه من حجه فى ركب الاميرة خناثة فى اواخر شعبـان 1144 ، انتهز الفرصة لاختصار كتاب نفيس نادر الوجود لم يكـن رآه قبل ذلك ، ويتعلق الامر بمصنف الحافظ محمد بن على بن محمد بن على المصرى بن محمد بن شباط التوزرى فى السيرة النبوية الذى شرح بـه قصيدة الشيخ البركة عبد الله بن يحيى الشقراطسى التوزرى . وجعل له مقدمة وخاتمة ، خصص المقدمة لكمالات الرسول الاعظم والخاتمـة فى شرح بعض الاحاديث ثم جعل له تراجـم لمواضيعه التاريخية رتبـها ترتيبا تسلسليا حسب زمن الاحداث ، ولو ان نطاق السفر كان متسعا لكان الاختصار اتقن واحسن على حد تعبيره المتواضع ، هذا وقـد

استهدف ابو القاسم لبعض العواصف على اثر الحوادث التى اعقبت محاولة تدخل الجيش فى الحكم وهكذا اضطر لمفارقة مكناس لنواحي الريف حيث اقام ردحا من الزمان .

شيوخه وتلامذته

لقد اخذ النصيب الاوفر من والده كما اخذ عن العلامة السيد البهلول البوعصامى ، والعلامة الشدادى ، وابى العباس الولالى وعن ابى على بن رحال ، وعن سيدى محمد المسناوى وابى الحسن على التدغى ، وعبد القادر ابن شقرون . وقد اجازه العلامة عبد الكبير السرغيني من فاس ، كما اجازه العلامة احمد الغربى من الرباط بعد ايابه من حجته مع السيدة خناثة وغير هؤلاء من اهل المشرق والمغرب .

وقد اخذ عنه كثير ممن اصبحوا قادة اعلاما فى مكناسة وفاس وغيرهما من امثال السيد الطيب بن يوسف وسيدى على ، والناصرى .

مؤلفاته وشعره

ذكرت لائحة طويلة لمؤلفاته لكنا نقتصر على ذكر شرحه للعمل الفاسي وفهرست شيوخه ، وكتاب التنبيه والاعلام بفضل العلم والاعلام ، والورد الندى فى ترتيب ما تضمنه شرح التسميط المحمدى المشار اليه آنفا . وقد كان من شعراء البلاط الاسماعيلى شأن والده ابى عثمان وابى العباس بن دادوش وعمر الوتاش (1) .

ويعتبر القاضي العميري من المبرزين فى الادب ايضا ، ومن الطريف ان نجد شعره عالج سائر الاغراض فهو فى التشوق والتوسل والاعتذار وهو فى المدح والرثاء والسياسة ، قال فى رسالة شعرية طويلة لوالده عام 1129 وقد مرض الوالد مرضا اشفى منه على الموت :

حياتك منتهى الامال عندى فليت الموت يقبلنى فداء

(1) المنزع اللطيف ــ ص 330

ومن قصيدة اخرى وقد الم به مرض :

امولاى هذا الداء عز دواؤه　　على وقد اودى بعبدك داؤه

ومن قصيدة يمدح فيها الشريف سيدى محمد بن حنين المقدسى لما قدم سنة 1130 من المشرق على السلطان الاعظم المولى اسماعيل يعزيه فى نجله المولى ابى مروان الذى توفاه الله بالحجاز :

تـاقت لمرآك منذ اليوم اشواق　　يا طلعة ولها بالغرب اشواق

ومن طريف شعره قصيدة يرد فيها على ابن غرسية فى تفضيله العجم علـى العـرب :

اغرتك نفس يـابن غرسية الذى　　بـه النعل زلت فى الضلالة والخف

وقال من لامية طويلة عندما اضطر لمفارقة مكناس بعد وفـاة السلطان المولى اسماعيل ، وهو يتشوق فيها للاهل والوطن :

دعينى فوصل الغيد ليس من العدل　　ولا تعذلى فالاذن صما عن العذل
وكيف بمـن ولى عن الوطن الذى　　توالت به الامال فى الزمن المحـل
بمكناسة الزيتون خلف اهلـه　　وحل بقرب الريف فردا بلا اهـل
امكناسة الزيتون يـا خير بلـدة　　حدائقها تجلـو عن الحدق النجل

❋ ❋ ❋

فيـارب فرج كربـتى واكفنـى أذى
عبيدك واجمع ما تشتت من شمـل !

وفى جلسة ادبية له بمصر تذاكروا حول مكناس ، فأنشـد ابـو القاسم العميـرى :

يـا للـورى لعمـارة　　سئمتـها بغمـاره
ومـا بغـير بـلادى　　ارضـى ولـو بسفـارة !
لا تجهلـن وفـائـي　　فلى عليـه امـارة !

الى آخر القصيدة الرائعة . هذا الى رسائل شعرية متبادلة بيـنه وبين قاضى غمارة ابو سلام الحميدى ، وله قصيدة يتوسل فيهـا باسماء الله

الحسنى عندما اشتد به الحال فى أزمتة . وقصيدة طويلة يرثى فيهـــا اخاه العلامة ابا الحسن . اما نثره فيعتـــبر من النـــثر الفنى الرفيـــع ،، ونتوفر على عدة نماذج منه ففيه التقريظ ، وفيه العتاب وفيه الاجازات ، هذا وقد نجا من حادثة تعرض لها على اثر اقتحامه (البيت المبـــارك) الكعبة المشرفة فقد اغمى عليه . وقد توفى بمكناســـة يـــوم 29 جمادى الثانيـــة عـــام 1178 (1) .

العـــربـــى بـــن محـــمـــد

هو الشيخ المحرر العلامـــة النحرير العـــربى بن محمد بصـــرى المكناسى ، ومن شيوخه ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن . بن عمران بصرى ، وابو عثمان سعيد العميرى ، وابو على اليوسى وابو العباس الولالى ، وابو عبد الله محمد البهلول البوعصامى وابو محمد عبد السلام البيجرى ، والقاضى ابو العباس احمد السجلماسى .

واخذ عنه طائفة مهمة من الطلاب فيهم ابو الحسن بن عبود وابو القاسم العميري ومن فى طبقتهم . وقد كان ضمن الركـــب الاميري الى البقاع المقدسة ، وهو الذى ينعته الكاتب الاسحاقى بابن اختـــه . وكان رفيقه فى جل مجالسه . وقد حضر جل مجلس العلم بالازهر الشريـــف وسأل احد شيوخ الازهر عن الفرق بين ما يبنى من الاسماء المتضمنة معنى الحرف ، وبين مالم يبن منها ، وذلك بقصـــد المقارنـــة بين اداء التعبير هنا وهناك . وله وقعت الحكاية التى ترددهـــا بعـــض المجالس العلمية على سبل التنذر ، لقد حضر مع بعض من الطلاب مجلس الشيخ على الحنفى فلما علم انهم من المغرب وكانت فاس فى عرف المشارقة هى وجه المغرب تعمد الشيخ ان يمازحهم فاستدرج بالحديث الى ان قـــال : « لا تجوز الصلاة خلف الفاسى » وقد شعر الحاضرون بأنـــه يقصدهم فتصدى السيد العربى هذا قائلا : ان المالكية يقولون بجواز الصلاة فى العذرة . وقد اضطر الشيخ للاستفسار عن المقصود بالعذرة فقال لـــه السيد العربى انها فناء الدار . وكانت مناسبة للصحبة مع الشيخ

(1) ابن زيدان : الاتحاف 5 ، 545 – المنزع اللطيف 254
الناصري : الاستقصا 7 – 74 – 100

هذا وله عدة مؤلفات ابرزها (منحة الجبار) ، والكواكب الدرية تحدث فى الاول حول التصوف ، وفى الثانى عن آل البيت وهما مخطوطان بمكتبة النقيب المرحوم ابن زيدان .

وقد توفى فى جمادى الثانية عام ثمانيـــة واربعين ومائـــة والف ، ودفن بمكناســـة الزيتـــون .

التسولى مؤدب الامير سيدى محمد

وفى ابرز ما عنيت به العادة فى القصور الملكية رعاية الامـــــــراء الصغار . وأول ظاهرة لذلك انهم يعينون استاذا منذ الايـــام الاولى فى حياة الامير يلازمه ويسهر على تربيته وتوجيهه لا يفارقه فى جل تحركاته يغتنم كل فرصة لتزويد تلميذه بما ينبغى ان يكون منه على بال بأسلوب واضح مركز . عرفنا عن الشيخ ابى محمد الحسن هلال المؤدب الخاص للامير المولى المعتصم ابن السلطان المولى اسماعيل الذى رافقـــــــه للحج . ونحن هنا مع الاستاذ ابى القاسم التسولى الذى عين من قبـــل السلطان المولى عبد الله لملازمة نجله سيدى محمد والذى رافقه فى حجه مع جدته الملكة خناثة . ولم نجد لترجمته اثرا فيما تحت يدنا من معاجم عن حياة لهذا الاستاذ الفاضل وقد تكون له صلـــة بالفقيـــه التسولى المشهور . وانما الذى استطعنا التأكد منه هو تاريخ وفاته وسببـــهـــا ومكانها ، فقد توفى يوم سابع عشر من ذى الحجة من سنة 1143 متأثرا بضربة شمس (23 يونيه 1731) وكان ذلك فى الطريق الى المدينـــــة المنورة من مكة المكرمة قريبا من قبر السيدة ميمونة زوج النبـــى صلى الله عليه وسلم وحمل الى وادى فاطمة وهناك اقام الركب جنازته ودفن .

رفـــاق آخـــــــــرون

ولم يكن فى الاستطاعة استقصاء جميع الشخصيات الكبرى التـــى حظيت بالسير فى ركاب الاميرة الجليلة لان المصادر اولا قليلة ومن جهة اخرى فان التقاليد المعروفة منذ القدم فى أسفار مثل هذه أن لا يلح فيها على ذكر جميع المرافقين بل والمرافقات وهكذا فبالرغم من العلم بأن فى جملة الرفاق الفقيه الاديب السيد محمد بن زاكور الفاسى ، والاستـــاذ

السيد احمد المكودى والكاتب ابا عبد الله محمد المكى الشاوى (1) كاتب السلطان محمد الثالث . فاننا مقتنعون من ان ثمت آخرين وآخرين ظلت اسماؤهم مختفية . وكما حصل هذا بالنسبة للرجال فقد تعمد النص عدم التعرض لذكر العدد العديد من السيدات الماجدات المحجبات اللاتى كن فى رفقة الاميرة خناثة ، وانا على مثل اليقين من ان عددا من الاميرات العلويات رافقن ربة الدار العلية الى بيت الله .

* * *

ولا بد ان هناك عددا مهما من الطلبة والخطباء والعدول والامناء ورجال الذكر والفضل . ولابد الى جانب هذا ان نعرف ان عددا من البنائين والنجارين والحدادين والسراجين والطباخين والرواد والخبراء ، كانوا ضمن المواكب . وان عشرات المحفات والمراكب وعشرات الخيام وعشرات المطايا من مختلف انواع الحيوان — وعشرات الاحمال من الزاد اللازم — بما فيه الماء والطعام — لموكب رسمى تسير على رأسه زوجة ملك ، وأم ملك ، وجدة ملك ، هذا الى العدد العديد من الحرس الملكى (البواخر) معداتهم الدفاعية واجهزتهم الخاصة : البنادق والرماح والسيوف ومئات الفوانيس .

مدينة متنقلة

ونحن اذا سمعنا عن الوصف المدقق لهذه الرحلة فى تركيبها أولا : الرئيس الذى يختار عادة من اكبر الناس سنا وامير الركب الذى يختار عادة من علية القوم . والقاضى ، والشيخ والامام ، ، ان هنا فى اثناء الطريق دروسا تنظم ، يعطى فى كل مرحلة نصيب من العلم ، وكثيرا ما يغتنم الفرصة اولئك الذين يكونون على طريق الركب وخاصة فى المدن الكبرى كطرابلس ومصراتة واجدابية وبنغازى ، وان مع الركب مكتبة علمية مركزة ترافق المشايخ والعلماء طيلة رحلتهم المقدسة .

ومن الملاحظ ان الركب يتوفر باستمرار على مطايا الابل كوسيلة

(1) الاتحاف 3 ، 338 .

رئيسية لقطع المسافات الشاسعة لكن الركب يحتاج فى كثير من الاحيان الى الاتصالات السريعة ، الى المطايا الاخرى من جياد وبغال ، وهكـــذا فان القوم قد يحتاجون للبحث عن عيون ومواجل جانبية ، وقد يحتاجون لتفقد ظال أو متابعة هاجم فتؤدى هذه المطايا دور السيارات الصغيرة اليوم . والركب بحاجة الى وسيلة لمخاطبة الرفـــاق واشعارهم بأوقات النوم والصحو ومواقيت الصلاة وساعات الرحيل ولهـــذا فان الطبـــول الكبيرة تستعمل كأداة لتجميع الناس وابلاغهم ما هم فى حاجة الـــى الاستمـــــــاع اليـــــــه .

ركـــب الحاج فى التاريـــخ المغربـــى

والواقع أن تاريخ تنظيم القوافل المغربية للبقاع المقدسة يرجع الى وقت مبكر جدا من تاريخ المغرب ومن المهم ان نعرف انــه فى ضمن ذلك التنظيـــم أسست عـــدة رباطات وعمـــرت عدة معاطن وحفرت عـــدة مواجن عبر الطريق الطويل الذي يربط بين المغرب والمشرق . وقد كان من مهام تلك المراكز تقديم المساعدات اللازمة لكل الذيـــن يردون على تلك الديار وهكذا أمنت الطريق نحو بيت الله . ولم يكن الهدف مـــن ارسال الوفد المغربى فقط تأدية المناسك ولكنه كان يؤدى ايضا مهمـــة سياسية تتمثل فى اظهار المغرب على النحو الذى ينـــبغى ان يظهر بـــه كدولة قوية منيعة ، وهكذا فان « الوجود المغـــربى » بالبقـــاع المقدسة كان له مغزاه فى الحجاز ومن الطريف ان نجد بعض الركاب فى المشرق فى مصر بالذات تنتظر وصول الركب المغربى لتقطع فى كنفـــه وحمايتـــه طريقها الى الحرمين الشريفين مع المحمل الشريـــف ، وبمرور الزمـــن تعددت الركاب فاصبح هناك ركب سجلماسة ، وركب فـــاس ، وركب مراكش ، وركب شنقيط ، علاوة على القافلة البحرية التى لم تنـــقطع على ممر الزمن لكن « الركب » الذى سار فيه الامير سيدى محمد ظـــل غير مستوف للحديث مع مـــا عرفنـــا ممـــا تركـــه من اصـــداء علـــى الصعيدين الدولى والمحلى .

* * *

ونفضل ان نختم حديثنا هذا بايراد النص الكامل للقســـم الخاص بليبيا من الرحلة التي سجلت خطـوات القافلـة الفاسيـة او بالاحـــرى

الركب الاميرى ولكن مع تزويدها بالهوامش الضرورية التى تجعل منهــا قطعة مجدية حية ، مؤملين ان يجد القارىء فى كل من النص والتعليــق مــا يرضــى بعــض الرغبــة .

« ،،، ومنها نزلنا احدى القرى المتجاورات المسماة بالزوارات (1) الغربية ، وهى قرية كبيرة بها ماء عذب فات بها عمران كبير وهى لهذا العهد خراب الا ما خف من العمارة ، واهلها فى القديم من الخوارج غلاة فى مذهبهم حسبما تقدم من مذاهب جربة (2) قبحهم الله .

قلت : ومن هذه القرية الفقيه عبد الرحيم الزوايرى ، لقيــــــه التيجانى ببلده هذه وتكلم معه فاذا هو له مشاركة فى العلم ، وانجر بهما الكلام الى التحدث فى مسئلة المسح على الخفين فى الطهارة ، فشنع بها

---

(1) كل المعلومات التي ساقها الشرقي الاسحاقي هنا عن الزوارات مبتقاة من الرحالـة عبد الله التيجاني بما فى ذلك المناقشة التي جرت بين الفقيه عبد الرحيــم والمؤرخ التيجاني حول مسألة المسح على الخفين ، والنص الذي روى عن أبي يزيد مخلد بن كيداد وموافقة الخوارج للشيعة فى الموضوع ومستند كل منهما والتعقيب على ذلك .. فلم يات اذن بشيء جديد من عنده ، وقد لاحظنا ان جل الرحالـة الذين مروا بهـذه الديار رددوا حديث المسح على الخفين هذا ، وسمحوا لانفسهم بالتنديد بالمذهب الذي يعتنقه سكان هذه الناحية ، وقد قلنا (جل) ونحن نقصد الى ان بعضهم لم يكن مهتما باثارة هذا الموضوع لانه فيما يظهر يعتبره مما يعني اصحابه اولا وبالذات ، هذا وقد تصدى للرد على الرحالة التيجاني وعلى من اقتدى به ، بعض ابناء هذه الناحية هو علي يحيى معمر فى كتابه : « الاباضية فى موكب التاريخ » كما ان هنالك كتابا حول الموضوع فى ثلاثة اجزاء : تاريخ المغرب الكبير لمحمد ابن علي بن دبوز ... وقـد تحدث الزميل الاستاذ احمد توفيق المدني فى كتابه الجزائر لدى معرض كلامه عن النظام الاجتماعي بوادى ميزاب ، تحدث عن النظام الذي اختاره علماء الاباضيــة ورجالهـم المفكرون حفظا للدين وصيانة لجمورهم من التلاشي واعطـى شرحـا مختصرا ولكنـه مركز لنظام المجالس الدينية عندهم : العزابة .

P. COSTANZA BERGNA O.F.M. MISSIONARIO FRANCECANO TRIPOLI DAL 1510 AL 1850 1924 PAGE 50 — 51

الزاوي : معجم البلدان الليبية 1968 ص 175 .
احمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، نشر دار الكتاب ، البليـدة الجزائـر 1963 ص 104 ـ 117 .

(2) لقد سلف ان ذكر الشرقي الاسحاقي انه سال الفقيه السيد عمر عن اهل جربة وذكر له عمر هذا مذهبا لا يرضي ، غير انه قال عنهم : فمنهم من يعلن عن مذهبه الفاسـد ومنهم من يتستر ... وقد فهم الاسحاقي من حال ذلك الفقيه انه يتحرج من مجاورتهم وانه خرج يريد الهجرة .

الصفحة رقم 68 من رحلة الشرقي الاسحاقي وهي تتعلق ببعض الحديث عن المقام بمدينة طرابلس ، ومن المعلوم ان المؤرخ الليبي ابن غليون تحدث عن هذا المقام فى كتابه ((التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخيار)) وتوجد المخطوطة الاصلية فى مكتبة باريز . هذا علاوة على المصادر الانجليزية والايطالية

على مثبتيها كثيرا وفاقا لمذهب الخوارج . قال : فذكرت له بعض الاحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها بالجملة ، وقال : هذه اخبار آحاد لا يجب العمل بشيء منها ، قال : وقد نص لنا سيدنا ابو يزيد مخلد بن كيداد على طرح ما كان من الاحاديث يناقض اصلا من اصولنا ، فلعنت النص ومن نصه ، وقد وافقت الخوارج على انكار المسح على الخفين اضدادهم الشيعة مستندين في انكاره الى ماورد عن على رضى الله عنه : انه كان لا يرى المسح ، وذلك غير صحيح عنه كرم الله وجهه ، فان حديث التوقيت في المسح ، وهو حديث صحيح يروى ، وقد تغالى الشيعة في هذا واتخذوه شعارا حتى ان الواحد من غلاتهم ربما تألى فقال : برئت من ولاء أمير المؤمنين ومسحت على خفى ان كان كذا ! والى هذا اشار الشاعر بقوله : — ونذكر حكاية هذا الشعر على حسب ما ذكرها ابو سليمان الخطابى فى معالمه قال : كان الحسن بن زيد بن الحسين بن على بن ابى طالب رضى الله عنهم واليا على المدينة من قبل ابى جعفر المنصور فعتب على بعض كتابه فحبسه ، فكتب له من السجن :

اشكو الى الله ما لقيت	ولو على جيفة وطئت !
لا اشتم الصالحين جهرا	ولا تشيعت ما بقيت
امسح خفى ببطن كفى	احببت قوما بهم شقيت !

قال : فاطلقه واكرمه .

واما الخوارج فوقفوا فى انكار المسح مع نص الكتاب ولم يروا نسخة بالسنة ، ورويت عن الامام مالك رحمه الله فى ذلك رواية شاذة لا ينبغى ان تحمل على ظاهرها ، وقد تأولها عليه من صححها عنه ، وبالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول ، وقد نصوا على تفسيق من قال به . وقول هذا الزوايرى : ان هذا من اخبار الآحاد ليس كذلك فقد نص الأيمة على ان هذا الحكم مما ارتفع عن رتبة خبر الاحاد ووصل الى رتبة التواتر .

وقريب من هذه القرية قصر يسمى فى القديم وزدر (1) بكسر

(1) المعلومات التي توجد هنا كلها مستقاة من الرحالة التيجاني بما فى ذلك الخوف من اختلاف الرجال ... وقد تصدى ابناء الناحية لرد هذه المنقولات كما علمنا .

الواو وسكون الزاى وكسر الدال المهملة قد امحى رسمه ، وكان هـذا الموضع مشهورا ببيع من يجتاز به من الحجاج وغيرهم للنصارى ، ولم تزل الركاب تحترس منهم اذا مرت بهم خوفا منهم ، وخوفهم على سرقة الرجال اكثر من خوفهم على سرقة الرحل ، فاذا جازوا عليهم ولـم يفقدوا ممن معهم احدا هنأ بعضهم بذلك ، قلت : اما اليوم فهذه البلاد كلها مأمونة من هذا ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين

وفى هذه المرحلة جزنا على برج ولول (1) مبنى فى البحر ، مقـدار غلوة (2) ترسى فيه النصارى لشراء الملح (3) .

وفـى وقت الضحى الاعلى مررنا علـى الزوارة الشرقيـة (4) ، ونخيل هاتين القريتين ليس بكثيرا متباعد المنابت ، وبهما مـاء عـذب اعقب الله لنا به ما كنا نشربه قبله من الملح الاجاج .

ثم كان الرواح من ارتحالنا من القرية المذكورة التى هى واهلها من

---

(1) هنا خطأ فى الرسم حيث كتب (ومول) بدل ولول ، ويذكر بعض المؤرخين ان زوارة كانت تنقسم الى مدينتين : احداهما ويزدير والثانية ولول او كوطين ، والمعتقد ان ويزدير انتقلت فى ظروف غامضة الى ولول ، واصبحت بقعة واحدة هي زوارة المعروفة اليوم ، ويقول الشيخ علي بقشوش ان زوارة فى التاريخ القديم كانت تتالف من ثلاثة حصون : وزدر وولول وتليل وقد سميت كذلك لان اقواما من بني ولول نزلوا بها . التيجاني ص 210 – الزاوي 273 .

(2) الغلوة : مسافة الرمية بالسهم ، من غلا يغلو السهم او بالسهم رمى به اقصى الغاية

(3) تحدثت جل مصادر التاريخ الليبي وخاصة منها المصادر الاوربية عن الملح الحجري الذي يوجد فى المنطقة لانه فعلا كان مثار تنافس بين الدول . ميكاكي : طرابلس تحت حكم الفرمانليين ص 22 .

(4) جدير بالذكر التأكيد على ان النعت بالشرقية والغربية قد اختفى الان واصبح اسم زوارة يطلق على المنطقة التي تقع ابتداء من الحدود الليبية التونسية الى زواغة او صبراته ... وينسب لزوارة عدد مهم من اهل العلم والفضل لا يحصى عددهم ، وقد وقفت فى دار المحفوظات التاريخية بطرابلس على امر للوالي حسن باشا الى السيخ سعيد ابن منصور وكافة جماعة زوارة وجماعة وزدر يعلمهم فيـه ان الفقيـه العدل السيـد حمادي بن عمر بن ختمة هو من اقارب احفاد المزار سيدي سعيد بن صالـح ، انظـر جريدة طرابلس الغرب عدد 9 – 6 – 1958 . ويحكي التاريخ القديم عن بعض منافسات وربما احتكاكات بين رجال هذه الجهة والجهات الاخرى لكـن الملاحظ اليـوم ان انسجاما قويا يوجد بين العناصر المتساكنة فى البلاد بعد الاستقلال الامر الذي يؤكد ان المصلحة الوطنية طغت على تلك الاعتبارات التي كانت بالامس مثار جدال ونقاش عظيميـن ...

الهاوية ، الى الزاوية (1) ، ومن الغد ارتحلنا منها على هيئتنا ومررنا على المدينة الكبيرة المسماة « زواغة » (2) وهي اكبر قرية هناك واضخمها وبها نخيل ومنها يظهر للمتوسم بعض مباني طرابلس وبينهما نحو من خمسين ميلا ، واهلها في القديم مشكورون مكرمون للحجاج على الضد من جيرانهم زوارة ، وبهذه المدينة اثار قديمة ووجدنا الآن بها ساريتين منها متجاورتين على شكل واحد وكل واحدة مؤلفة من اربع قطع في غاية الضخامة والارتفاع في الهواء ، وحسن الصنعة غير ان احداهما قد سقطت قطعة من اعلاها يزعم الناس ان بعض كبراء العرب كلف اهل الموضع برمي تلك القطعة لانه سمع ان كل قطعة منها مملوءة ذهبا فرموها وكسروها فلم يجدوا بها شيئا ، والى جانبها من جهة البحر اثر المدينة القديمة المعروفة بصبرة وربما كتبت بسين مكسورة عوض الصاد وهي كانت في القديم قاعدة ذلك الموضع كله ولم يكن هنالك أخص منها ، واستفتحها عمرو بن العاص رحمه الله اول دخوله لافريقية بعد افتتاحه لطرابلس ، جرد اليها خيلا وهم آمنون قبل ان يصل اليهم الخبر بفتح طرابلس فصبحتها خيله وقد فتحوا ابوابها لتسرح ماشيتهم ،

---

(1) لم يكثر الاسحاقي من الحديث عن الزاوية هذه زاوية اولاد سنان مع انها بقعة التفتت اليها اقلام الرحالة قبل الاسحاقي وبعد فوصفوها باحسن النعوت واكرم الخصال . وينعتونها بالغربية تمييزا لها عن زاوية شرقية يستظهر الزاوي : انها زاوية مرادة . والزاوية الغربية تضم اليوم زهاء ست وثلاثين قبيلة من ابرزها الابشات وجدهم الملقب بالوجيه من الاشراف الادارسة ، وكذلك الكمامدة واولاد بن مريم الخ ... ولا بد من ملاحظة ان الشرقي الاسحاقي علاوة على انه اقتضب الكلام اقتضابا تساهل تساهلا بينا في تبلسل المراحل وان من تتبع رحلات المارة من هذه الناحية سيقرأ الحديث عن زواغة وصبره قبل ان يصل الى الزاوية الغربية ، هذا وقد افاد التيجاني ان هنالك زاوية اولاد سهيل حيث وقف على خزانة هامة من المخطوطات محبسة على الطلبة والقراء ، التيجاني : الرحلة صفحات 212 ـ 214 ـ الانصاري : نفحات النسرين ص 198 ـ 196 ـ 197 ـ الزاوي صفحة 150 .

(2) كل ما نقله عن زواغة مأخوذ من عبد الله التيجاني باستثناء بعض العبارات الخاصة بسكانها ، وتعتبر زواغة احدى القبائل الاحدى عشرة التي تكون صبراته أو صبره كما تسميها الرحلة ، والقبائل الباقية الخطاطبة ، واولاد شرف الدين واولاد سلطان واولاد العيسي واولاد يحيى والقرابلية والمفتاحلية وقصر العلالقة ومداهين شعبان ومداهين خرسان ، ولهذه القبائل بلدية خاصة كما ان هنالك بلدية اخرى لقبائل العجيت الثمانية التي تشملها ايضا صبره : اولاد راشد واولاد الشيخ وجبهة الوادي والزرامكة والمعزات والعريشات والهرشة والقواصة ... والزوافة مرسى قديم غربي صبراته . الزاوي : الفتح العربي في ليبيا ص 55 ، المعجم 175 .

وكان على الخيل عبد الله بن الزبير فدخلوها فلم ينج من اهلها احد الا ناس قلائل توجهوا فى مراكب لهم الى صقلية ، واحتوى اصحاب عمرو على ما فيها ورجعوا الى عمرو فأمرهم بهدمها واحراقها (1) . وارتحلنـــا من الغد واتصل المسير فبعد تجآهد منه وتناوش ، كان المبــيت على قراقــوش (2) .

---

(1) ما ذكره الاسحاقي عن صبراته الليبية مستمد كذلك من الرحالة التيجانـي ، وصبرة هذه هي التي عرفت منذ الاحتلال الايطالي باسم صبراته المدينة الاثرية الرائعة التي يحج اليها السواح من مختلف جهات الدنيا ، ويذكر التاريخ كما اشرنا سابقا انها احدى المدن الثلاثة التي تعنيها كلمة طرابلس والمدينتان الباقيتان هما (أويـا) حيــث طرابلس اليوم ، اما المدينة الثالثة فهي لبدة التي لم تخل رحلة من الحديث عنها ... ولا شك اننا سنلاحظ ان حديث هؤلاء السادة الحجاج عن هذه المعالـم التاريخيـة الثلاثة حديث يناسب المعلومات التي كانت معروفة آنذاك ومع ذلك فهي معلومات ظلت سرا للذين تناولوا الموضوع من بعد ذلك . ابن غلبون : ص 30 ــ 31 .

(2) قرية قراقوش (قرقارش) لا تبعد عن طرابلس الا ببضعة كيلومترات ، وقراقوش هذا ارمني مملوك الملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن ايوب بن شادى اخي السلطان صلاح الدين ، وقراقوش مكون من قرة بمعنى اسود وقوش بمعنى نسر اي النسر الاسود وقد اتاحت له الفرصة فى بعض الاحيان فاستولى على طرابلس وكان له قصر بظاهــر طرابلس بالمنطقة التي تحمل اليوم اسم القرقارش المحرف عن اسم قراقوش ، وقد وقفت على جزء مهم من المعالم التاريخية التي اكتشفت منذ 24 ــ 2 ــ 1965 هناك والتي لا شك انها ستضيف ثروة الى ما تتوفر عليه الجمهورية الليبيــة لحــد الان من مباني وآثار ... فهناك معاصر قديمة للعنب والزيتون ، وهناك محاجر وكنيسة وآبار من عهد الرومان ، وجرار مليئة بالنقود البرونزية وصورة لادم وحواء ... هذا ولا تبعد القارقاش التي كانت مركز استراحة للركب الملكي ، لا تبعد عن النقطة التي اختارها العياشي فى جنزور محل راحة له ، وجدير بالذكر ان نشيد يدورنا بالمدرسـة التــي لفتت نظر الامام العياشي هنا ، والتي نعتها بانها احسن مدرسة فى الساحل الليبـي وهي تحمل اليوم اسم زاوية عمورة ، اعتقده اسم احد رجال الدولة الذين قاموا بتوسعة المدرسة واصلاحها واظنه السفير عمورة ... ولهذه القرية (القرقارش) ينتسب علامة كبير ودبلوماسي ناجح هو الشيخ السيد محمد بن علي الخروبي المحدث الفقيه الذي ورد على مدينة مراكش 959 وسنة 961 ايام السعديين وذلـك فى شـان عقـد المهادنة بين السلطان ابي عبد الله محمد المهدي الشيخ وبين دولة العثمانيين ، وقد اكرم العاهل المغربي وفادته فى المناسبتين الاثنتين ، وقد كانت مناسبة قام فيها باعطاء بعض الدروس ومنح بعض الاجازات . ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ، تحقيق ونشر عبد الهادي التازي ص 172 . التيجاني : الرحلة 103 ــ 104 ــ 105 ــ 110 ــ 111 ــ 113 . العياشي بن ابراهيم : الاعلام فى تاريخ مراكش ص 150 ــ 251 ــ 252. الزاوي : اعلام ليبيا ص 386 ــ 387 معجم البلدان الليبيــة 1968 ص 264 . علـي المصراتي : لمحات ادبية عن ليبيا ص 43 ــ 44 ــ 48 . علي عبد اللطيف : اكتشافات هامة فى منطقة قرقارش مجلة ليبيا الحديثة عدد 4 يونيه 1968 .

ومن الغد ارتحلنـــا فاصبحنـــا علـــى اطرابلس (1) فتـــراءت لنا تصوره لها وميض وكأنها فى سواد زياتينه الايام البيض وقد صدق أهلها فى تسميتهم لهـا بالمدينـة البيضـاء ، ومـا حططنـا الرحـال والقينا عصا الترحال ، حتى قريبا من الظهر فتسابق الناس الى الموضع المسمى منه بالمنشية (2) لاكتراء الاحواش والسوانى ، ومن الناس من سبق ، أو سبق صاحبه فهيأ منزله فقصد له من اول وهله . وخرج ولد (3)

---

(1) طرابلس لفظ رومي أصله TRIPOLIS ومعناه كما سبقت الاشارة لذلك المدن الثلاث، واشهر ما يشكل بفتح الطاء وضم اللام والباء وعليه قول الشاعر :

لاهـل طرابلـس عـادة * مـن البر تنسـي الغريـب الحميمـا
حللـت بها مكرهـا ثـم اذ * اقمت بها . ابدلوا الهاء ميمـا !!

وذكر البكري انها بزيادة الف قبل الطاء وسكون الطاء وعليه قول الاخر :

لقد طال شوقي الى فتيـة * حسـان الوجـوه باطـرابلـس

واختار بعضهم لاجل التفريق بين طرابلس الغربية وطرابلس الشامية ان يزاد الالف فى الاولى ويسقط فى الثانية .. هذا واشتهر عند الناس ان نعتها بطرابلس الغرب كان منذ حكم العهد التركي عندما جمعوا بينها وبين طرابلس الشام ، لكنا عثرنا على وصفها بالغربية قبل وصـول العثمانيين لهـذه الديـار فى عدد من المصـادر القديمـة . ابن غلبون : التذكار ص 9 — 10 — 11 المعجم ص 28 .

(2) المنشية منطقة تقع ظاهر المدينة القديمة ، وعلى اطرافها يقع سوق الجمعة الذي يعقد فيه الى الان سوق عظيم كل يوم جمعة ، وحيث المكان المعروف بالعمروس ، وقد ورد اسم المنشية على لسان اكثر من رحالة ، ووصفها ابن عبد البلام الناصري بانها ذات النخيل البهية والمناظر الرائقة ، والفواكه الفائقة ، يكل عن وصفها نطاق البيوت ولا يضبطها لسان ولا بنان لا سيما الاترج الذي لا يوجد بغيرها والذي تتخذ منـه انـواع العطور لتطييب الثياب والابدان وكان الحجاج يفضلون النزول بهذه النواحي وخاصة فيهم ذوي الحيثيات لانها فعلا طيبة اللهواء وافرة المياه .
والمنشية قريبة من الظهرة والزيارية ، وفى ابرز ما يجب المقام هنا دون داخل المدينة هو التخلص من المكوس المفروضة على بعض ما يحمله الحجاج ، وقد كان سكانهـا يكونون مع أهل الساحل دعامة وقوية لحكم الاسرة القرمانلية واليها كان يلتجيء السلك الدبلوماسي عندما كانت طرابلس تستهدف لقصف خارجي . الناصري ابن عبد السلام: الرحلة ، مخطوط مصور بالخزانة العامة . ابن غلبـون : التذكـار ، صفحـة 11 . ماكيللي : طرابلس تحت حكم القرة مانلي ص 28 — 50 .

(3) كان الذي تراس بعثة الشرف التي كانت على ابواب طرابلس هو ولي العهد الاميـر محمد نجل الباشا احمد القره مانلي حاكم طرابلس ، وقد كان عمره أحدى وعشريـن سنة . ولا شك انها — كما اشرنا لذلك — تشريفات مدروسة فان وجود « ولد سيدنا » وهو ولي للعهد ، كان يقتضي حضور ولي عهد ليبيا ، هـذا ورعيا للتقاليد المرعيـة نلاحظ الصمت المطلق فيما يتعلق بالاميرة الجليلة وحاشيتها السعيدة . ومع ذلـك علمنا ان نساء طرابلس كن على جانبي الطريق يحيين ركب الاميرة ويشهدن هذه المناسبة الفريـدة .

صاحب البلد وحاكمه أحمد باشا فى لمة من اصحابه مع اهل بلــد رجالا ونساء حفافى الطريق وعلى السطوح مظهرين الفرح والسرور بولــد (1) سيدنا نصره الله وبوفد الحجاج ، واخرج مدافع كبارا سلاما على ولد السلطان نصره الله على عادة اهل البحر فى التسليم والتوديع بالمدافع ، واحتفل ولد سيدنا نصره الله سيدى محمد أصلحه الله للدخول لهــذا البلد فيمن معه من الوصفان (2) عبيد سيدي البخاري نفــع الله بــه

---

(1) القصد الى الامير سيدي محمد بن عبد الله الذي اصبح فيما بعــد محمد الثالــث ، ومن المعلوم ان سنه لم يكن ليتجاوز التاسعة من العمر لكن الملاحظين تحدثوا عنــه حديث الكبار وقد عرفت في تقاليد الدولة العلوية تنشئة الامراء على اسس من التربية متينة سليمة ليعدوهم لتحمل المسؤوليات ، ونظام تعليم الابناء فى القصور الملكيــة معروف جدا فى كتب التاريخ المغربي منذ فجر تاريخ المملكة المغربية ، ومن الطريف ان نعرف انهم كانوا اذ يختارون لهم الاساتذة الماهرين ، يبعدونهم عــن اقاربهــم ، ويحيلون بينهم وبين مظاهر الرفاهية والابهة وفخفخة الملك وعظمة السلطان لعلمهم ان ذلك مما يعوق عن تكوين المرء ، وكان اشراف الملوك مباشرا على تربية ابنائهم من قبل المعلمين والاساتذة ويوجد فى التاريخ المغربي عدد من الرسائل الملكية المكتوبر بصفة خاصة فى شان تعليم الامراء ، الشيء الذي يدل على مدى العناية الفائقة باعداد قادة الغــد ...

ابن زيدان : العز والصولة فى معالم نظام الدولة ، المجلد 1 ص 75

ميكاكي : طرابلس الغــرب 79 .

(2) كل الدين لهم صلة بتاريخ المغرب لا بد ان يكونوا ملمين بالفرق العسكرية التي كان يتالف منها الجيش المغربي ، فهناك فيلق شراكة الذي كونه السلطان المولى الرشيد من المتطوعة الدين وردوا من المغرب الشرقي : بنو عامر وبنو سنوس ، وردوا يبتغون التجنيد انفة من ولاية الترك على حد التعبير التاريخي القديم ، وقد كان مقر هــذا الفيلق ظاهر مدينة فاس فى المكان المعروف بقصبة شراكة ، وهناك جيش الودايــا الذي يشمل ثلاثة ارحاء (أي فرق) : رحى اهل السوس ورحى اهل المغافرة ، ورحى الودايا ، ويطلق على جميع هذه الفرق (الودايا) جمع ودى بوزن فنى ، قبيلة من عرب معقل بالصحراء ، وقد استقر بعض هذا الجيش فى مكناس وبعضه فى فاس ثم استقرت كتيبة منه فى الرباط حيث (قصبة الودايــا) الان ، واما جيش عبيــد البخــاري او (الوصفان) او (عبيد الديوان) كما قد يسمون فهو الجيش الذي اشــرف السلطــان المولى اسماعيل بنفسه على انشائه وتنظيمه وتموينه . وقد بلغ عدد افراد هذا الجيش مائة وخمسين الفا ! ويعتبر هذا الجيش من اقوى ما كان يعتمد عليه المولى اسماعيل فى حماية حدود البلاد ، وضبط امنها واستقرارها ، وقد اختار له اسم (عبيد البخارى) او (البواخر) كما تسميه العامة ، لانه رحمه الله بعد ان جمعهم اول الامر احضــر مخطوطة من صحيح الامام البخاري وخطب فى ضباط الجيش : « انتم وانا عبيد لسنة رسول الله المجموعة فى هذا الكتاب ، فكل ما امر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل ... » وطلب اليهم اداء اليمين على البخاري فعاهدوه وامــر بالاحتفــاء بتلــك المخطوطة وبحملها عند الحروب امام الجيش تيمنا بها وتبركا . فلهذا قيل لهم (البواخر) او عبيد البخاري ، والمسلمون قاطبة يكنون لصحيح الامام البخاري قداسة يستحقها

فتناولوا من لباسهم ومراكبهم وحسن زيهم ما كانوا أعدوه لذلك ، ولعبوا بالبارود لعبا قضوا منه ترك البلد وغيرهم العجب ، ويعترفون انهم لا قدرة لهم على ذلك اللعب ، ولا معهم من الفروسية ما يقاوم ذلك ، واهل البلاد المشرقية كلهم يتعجبون من زي مخزن (1) سلاطين الغرب مولانا اسماعيل وولده هذا مولانا عبد الله نصره الله وادام وجوده فقد تقدم عندهم من فروسيته وشهامته وحزمه وعزمه وضبطه وجوده ما أوجب تعظيمه فى نفوسهم كل التعظيم ويقول منهم من علم مما اعلم : من يشابه ابه فما ظلم ، واحتفل الباشا (2) فى ضيافة ولد سيدنا نصره الله مع امه اعزها الله غاية الاحتفال فما ترك شيئا من انواع المؤنة والمعلوفات وسائر المرافق الا أحضره ووقفوا لدفعه خدامه واعوانه الموكلون بذلك ، وهذه عادته حتى انفصلنا عن البلد مشرقين وكذلك حين

مقامه ، ومن هنا اثرت قراءة البخاري بالقصور الملكية فى الاشهر الحرم برواية ابن سعادة التي اخذها عن الامام الصدفي .
هذا وقد اقترن تاسيس هذا الجيش من قبل السلطان المولى اسماعيل ببعض معارضة من احدى العلماء ممن لم يدركوا ـ فيما يظهر ـ الاهداف البعيدة المدى من تكوين هذا الجيش العتيد . وقد تجد لهذا الجيش شبها فى بعض النقاط بالجيش الذي أسسه العثمانيون تحت اسم ((بني تشرى)) او الانكشارية ...
الناصري السلوى : الاستقصا طبعة دار الكتاب ، البيضاء 1956 ج 7 ص 41 ـ 42 ـ 50 الزياني : الروضة السليمانية مخطوط بالخزانة العامة ص 67 ـ مولاي عبد السلام : درة السلوك ، مخطوط بالخزانة الملكية ـ ابن زيدان : المنزع اللطيف ، مخطوط ص 392 ـ ابن ابراهيم : تاريخ مراكش ، المجلد 5 ص 21 ـ ابن غلبون : التذكار ص 272 ـ ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية 1960 ص 17 .

(1) لفظ المخزن يعني فى الاصطلاح المغربي الحكومة ، وقد وردت اللفظة فى عدة مقاطع لدى المؤرخ المغربي ابن صاحب الصلاة فى تاريخه المكتوب فى القرن السادس الهجري ، واصلها أن الحكومة لا بد ان يكون لها مخزن اي مستودع تعتمد عليه عند الحاجة يضم كل ما يمكن ان يتصوره المرء من عتاد حربي ومواد ، ومال .. لاهمية المخزن بالنسبة للحكومة اطلقوا اسمه عليها فاذا سمعنا المغاربة يرددون حتى اليوم ((المخزن ما معه كذب)) فانهم يقصدون : (الحكومة لا ينفع معها دجل) ... ومن الطريف ان نجد هذا اللفظ مستعملا ايضا فى طرابلس فى نفس الفترة التي زار فيها الامير سيدي محمد ليبيا . ابن غلبون 272

(2) نرى انه بعد استقبال الامير المغربي من قبل الامير الليبي ياتي دور الوالد امير المؤمنين الباشا ، ويذكر مؤرخ الرحلة ان حاكم البلاد لم يدخر وسعا فى تقديم ما ينبغي تقديمه للترفيه على ضيوفه اذ كان يعرف سلفا مركز ضيوفه ... وقد اكدت المصادر الليبية ، وكذلك المصادر الاجنبية هذه الحفاوة التي وصفها شاهد العيان هنا ... فانظر تاريخ ابن غلبون وانظر كذلك رسائل الميس توللي .

خيمنا على طرابلس مغربين (1) جزاه الله بالخير فقد قام بأداء الحقوق قيام الحر لا المرقوق انما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه ، ولا شك أن البادى فى الخير أكرم والا فهذا الخير الذى صدر منه للسيدة والدة سيدنا نصره الله قد كافئته عليه وأضعفت له الجزاء على ضيافتــه اضعافــا مضاعفة ، فقد أعطته عطاء ملوكيا (2) يستغرب فى بلده وغيره جزاهــا الله بالخير على ما أسدت من الخير والتبرعات ، فى هــذه الفلــوات ، التى لا يستغنى عن المواساة فيها الغنى والفقير ، والجليل والحقــير ، تقبل الله منها أعمالها وانالها من الخير امالها امين .

قال بعض المؤرخين (3) « ان افتتاح طرابلس فى القديم على يــد عمرو بن العاصى رضى الله عنه بعد افتتاحه لمصر والاسكندرية وذلك سنة اثنين وعشرين سار اليها فى جيشه فنزل على شرفها من الجهــة الشرقية وأقام عليها شهرا لا يقدر منهم على شىء وقد كانوا استعانوا

---

(1) اغتنم الشرقي الفرصة هنا لذكر الاحتفاءات التي كانت للركب الاميري فى العاصمــة طرابلس عند الاياب ، ومن المؤسف ان النسخة المخطوطة التي نعتمدها كمرجع للرحلة الاميرية مبتورة الآخر ، ولذلك فاننا نجهل التفاصيل الكاملة لمقام الركب فى ليبيــا عند الرجوع ، وحتى المصادر الليبية التي تحدثت عن زيارة الامير وجدته اختصرت الكلام ... هذا وان فى هذه الفقرة : ((وكذلك حين خيمنا على طرابلس مغربين)) ما يدل على ان الاسحاقي انما اخذ فى تحرير الرحلة بعد ان رجع من حجه واقترح عليه تسجيل انطباعاته .

(2) جرت العادة الملكية فى المغرب ان يبعث مع الركب الاميري بمئات التحف والهدايا بالاضافة الى المبالغ النقدية الضخمة وذلك لتوزيعه على كبار الشخصيات الساميــة والعلماء ورجال الفضل ، وقد زود السلطان المولى عبد الله والدته من ماله الخاص بالعشرات من السبائك الذهبية والآلاف من الدنانير المطبوعة . هذا الى ما كانــت تتوفر عليه الاميرة وما اعدته طيلة المدة . وقد وقفت على بعض التحف فى دار المخطوطات بطرابلس الغرب يعتقد ان مصدرها من الديار المغربية ، وانا على يقيــن من انــه لولا الفتن الهوجاء التي شبت بسبب المغامرة التي قام بها علي برغل ، والاضطرابات التي اعقبت ذلك لوقفنا على عدد من التحف الثمينة التي استدعت انتباه البعثات الديلوماسية القديمة فتحدثت عنها التقارير التي رفعتها الى دولها ...

(3) القصد الى الرحالة المعروف عبد الله التيجاني الذي قام سنة 706 بتسجيل رحلته الى طرابلس وكما استمد الاسحاقي فيما سبق من التيجاني ظل يعتمده دوما فى جل المعلومات التي يوردها .

بقبيل من البربر يعرفون بنفوسة (1) دخلوا معهم فى دين النصرانية فخرج ذات يوم من عسكر عمرو رجل من بنى مدلج يتصيد فى نفر معه فامعن عن العسكر الى جهة غربى المدينة ومال الى شاطىء البحر ، والبحر لاصق بالمدينة وليس للمدينة اذ ذاك من جهة البحر (2) سور بل كانت سفنهم شارعة الى بيوتهم فنظر المدلجى واصحابه الى البحر قد حسر من جهة المدينة عن مسلك يمكن النفوذ اليها منه ، فندبوا معهم جماعة واقتحموا المدينة فلم يكن للروم مفزع الا سفنهم وأبصر عمرو اصحابه فى جوف المدينة فاقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت من الروم سوى من خف فى سفينة ، واحتوى عمرو على المدينة فهدم سورها وارتحل عنها .

ثم بعد ذلك جدد بناء سورها من جهة البر على يد عبد الرحمن ابن حبيب (3) المتغلب على افريقية فى آخر دولة بني أمية سنة اثنين وثلاثين ومائة ، وتأخر بناؤه من جهة البحر الى ولاية هرثمة بن اعين (4)

---

(1) يعرفون بذلك لانهم يسكنون جبل نفوسة ، ومن المعلوم انها سلسلة جبال صخرية تمتد من الغرب الى الشرق وهو جزء من سلسلة جبال الاطلس التي تمر بالمغرب والجزائر وتونس وطرابلس وتنتهي الى جبال قماطة وهي الهضاب التي تسمى ((النقازة)) غربي مدينة الخمس ...
الزاوي : تاريخ الفتح العربي فى ليبيا ص 55

(2) يلاحظ ان طرابلس وقتئذ لم يكن لها الا سور واحد يحميها من جهة البر ، وسيمر بنا ان عمرا بن العاص هدم هذا السور عند استيلائه على المدينة ، ولم يتجدد بناء هذا السور الا فى اواخر دولة بني امية سنة 132 اما السور الذي من جهة البحر فقد تم بناؤه ايام الخليفة هارون الرشيد سنة 180 ، وقد زاد فى احكام السورين معا بعد ذلك ابو الفتح زيان الصقلي والي طرابلس سنة 345 ثم اضاف ابو محمد عبد الواحد ابى حفص ((ستارة)) الى هذا السور محيطة به عندما وصل لطرابلس سنة 614 ، وجعل لهذه (الستارة) ابوابا ... بيد ان الستارة لم تتصل بالبحر الا فى بداية القرن الثامن التي صادفت ايام مقام الرحالة التيجاني بطرابلس .

(3) عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة بن عقبة نافع ، كان من فرسان العرب وشجعانهم ، حارب فى الاندلس عام 123 هـ ورجع منها لتونس سنة 127 هـ واستولى على القيروان سنة 129 هـ وتغلب على افريقية كلها واستقل بها عن الامويين ، وقد توفي سنة 138
ابن غلبون : التذكار .

(4) بعث الخليفة هارون الرشيد بهرثمة بن اعين لافريقية سنة 179 هـ (795 م) فتحبب للرعية ، وكان مما قام به من اعمال عمرانية بناء سور طرابلس ، وهو الذي بنى قصر المنستير ، ولما راى ان افريقية لا يستقر بها حال لعامل استعفى من الولاية فاعفى وارتحل للمشرق بعد سنتين ونصف من ولايته ومع اعتزاله هذا الميدان فقد توفي مقتولا بسجن المامون سنة 200 هـ (855) م

على افريقية من قبل الرشيد سنة ثمانين ومائة ثم زاد فى اتقانه ورفـع بنائه من جهة البر والبحر معا ابو الفتح زيان الصقلي (1) متولي طرابلس عام خمس واربعين وثلاثمائة ، ويحيط بهذا السور الآن (2) فصيل آخـر أقصر منه على العادة فى ذلك يسمونه (الستارة) ولم يكـن فى القديـم وانما امر ببنائه الشيخ ابو محمد عبد الواحد بن ابي حفص (3) ايـــام وصوله الى طرابلس فى شهر شعبان من سنة اربـع عشـرة وستمائة ولم تتصل هذه الستارة حين بنوها بالبحر وانما انتهوا بها الى « البـاب الاخضر » وبينه وبين البحر فسحة وأتمت بعـد (4) ذلك ، وقـد كان زيادة الله بن الاغلب (5) لما تغلب الشيعي (6) على اكثـر بلاد افريقيـة هرب من رقادة (7) فارا اماما ، فتوجه الى طرابلس فأقام بهـا أياما ثـم

---

(1) زيان الصقلي كنيته ابو الفتوح ولاه ابو الطاهر المنصور اسماعيل ابن القائم بامر الله محمد بن عبد الله المهدي عاملا على طرابلس وقام باعباء الحكم فيهـا وعني باصـلاح معالمها وزاد فى سورها البري والبحري سنة 345 ايام المعـز ابى تميـم معد ولـد المنصور اسماعيل . ابن غلبون : التذكار ، نشر الزاوي ص 19 ـ 20 .

(2) الكلام دائما للرحالة عبد الله التيجاني ، ولذلك فان تمسك الاسحاقي بكلمة الان يفيد ان حالة السور ظلت على ما هـي عليه حتـى وقت زيادة الركـب الاميـري لطرابلس سنـة 1143 .

(3) ابو محمد عبد الواحد هذا هو ابن الشيخ ابي حفص عمر بن يحيى جد الملوك الحفصيين، ودولتهم متشعبة من دولة الموحدين يرجع نسبه الى امير المؤمنين ابى حفص عمر بن الخطاب على ما ذكره غير واحد من المؤرخين ، وقد تامر ابو محمد عبد الواحد يـوم عاشر شوال 603 هـ 1207 م وتوفي سنة 618 هـ 1221 م

(4) يعني ايام كان الرحالة التيجاني مقيما بالعاصمة : طرابلس

(5) القصد الى ابى مضر زيادة الله (الثالث) بن عبـد الله بن ابراهيـم بن احمـد ابن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب ، هذا الذي قتل اباه واعمامه واخاه ... وقد آل امره الى هزيمة منكرة بالارض وقتل من عسكره الوف سنة 296 هـ (908) م ولما تحقق انقضاء امره جمع ماله وآله وخرج ليلة 26 جمادى الثانية 296 وقد قصـد طرابلس ثم مصر وتوالت امراضه واحزانه ومات بالرملة سنة 303 .

(6) يقصد بالشيعي ابا عبد الله الصنعاني الذي ثار ضد ابي مضر زيادة الله الثالث

(7) رقادة : بلدة كانت بافريقية بينها وبين القيروان اربعة اميال ، بناهـا ابراهيـم بـن احمد بن الاغلب سنة 263 وشيد بها قصورا وجامعا واسواقا ، ولم يكن بافريقيا اطيب هواء ولا اعدل نسيما منها ، يقال : ان من دخلها لا يزال مستبشرا من غيـر سبـب ، ويذكر ان احد ملوك بني الاغلب ارق وشرد عنه النوم فعالجه اسحاق المتطبب فلم ينم، فامره بالخروج والمشي فلما وصل الى موضوع (رقادة) نام فسميت رقادة ، واتخذها مسكنا ودارا وموضع راحة للملوك ، ياقوت : معجم البلدان .

انفصل عنها متوجها الى المشرق ووصل بعد ذلك (1) فولى عليها اخاه ابا العباس وتمام ابن المبارك ، ثم انفصل الى سجلماسة واستخرج عبيد الله المهدي من سجنها (2) ودعا له بالخلافة وذلك سنة سبع وستين ومائتين (3) ، فلما استقامت الامور للمهدي وقتل ابا عبد الله وابا العباس (4) اخاه جهز جيشا الى طرابلس مع بعض قواده فحاصرها (5) مدة ثم انصرف عنها غائبا ولم يفتتحها ففاض ذلك عبيد الله فوجه ولده ابا القاسم الملقب بعد بالقائم فكان خروجه لذلك في جمادى الاولى من سنة ثلاث وثلاثمائة فحاصرها وضيق عليهم الى ان فنى طعامهم وافتتحها ، وقد كانوا اسمعوه شرا ونالوا من عرضه كثيرا فسالمهم في انفسهم الا قليلا منهم واغرمهم ما انفق على الجيش وذلك اربعمائة الف دينار وكان المتولى لتغريمهم وتعذيبهم خليل بن اسحاق (6) وهو من ابناء جندها وممن ولد بها وكانت له صولة وهيبة وحظ جليل من العلم وباع متسع في الادب واستخلف عليهم أبو القاسم واليا من قبله ثم انصرف عنهم ، ولما انصرف العبيديون الى مصر وتركوا الصنهاجيين

---

(1) الذي وصل هو ابو عبد الله الصنعاني الذي نصب اخاه ابا العياش المخطوم . ابن ابي الضياف 1 ص 118 – 119 .

(2) كان يرافق عبيد الله المهدي في سجنه بسجلماسة ابنه ابو القاسم ويذكر التاريخ ان صاحب سجلماسة اليسع بن مدرار اعتقلهما بامر من المكتفي العباس او ابن الاغلب وقد اصطدمت جموع ابي عبد الله الصنعاني بجيوش اليسع وتغلب ذلك على هذا وافتك المهدي وابنه ورجع الجميع الى رقادة سنة 297 هـ 910 م والى المهدي هذا تنتسب المهدية بافريقية التي بناها واتخذها سنة 308 هـ 921 م . ابن ابى الضياف 1 ، 118 – 119 – 123 .

(3) كذا في النص والصواب سبع وتسعين وهو ما يوجد في جميع المصادر التاريخية . التيجاني ص 240 ابن غلبون ص 20 ابن ابى الضياف 119 – 121 .

(4) تم قتل ابي عبد الله الصنعاني مع اخيه ابي العباس سنة 298 ابن ابي الضياف 122

(5) كان هذا الجيش في اسطول بحري وقد قابله الطربلسيون باسطولهم فهزموه واحرقوه. ابن غلبون : التذكار ص 20 .

(6) خليل بن اسحاق هذا هو الذي تولى بناء مصلى طرابلس سنة ثلاثمائة وقد قتله بالقيروان ابو زيد مخلد بن كيداد لما تملك القيروان سنة 332 التيجاني ص 241 – 246 – 253 – 254 .

بافريقية استولى بنو خزرون (1) الزناتيون على طرابلس وكانت بينهم وبين الصنهاجيين (2) وقائع كثيرة اشار ابن الرقيق فى تاريخه (3) الى بعضها ، ولم تزل بأيدى الزناتيين الى سنة اربعين وخمسمائة فكانت فى تلك السنة شدة عظيمة ومجاعة هلكت فيها الناس وفروا عن اوطانهم فجهز اليها لجار (4) صاحب صقلية اسطولا حاصرها به وذلك بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولاته فيهما ووقع بين اهل طرابلس خلف ادى الى تغلب الاسطول المذكور عليها فأحسن قائده

---

(1) يرجع نسب بني خرزون الى قبيلة زناتة التي كانت توالي الامويين بالاندلس ، ثم نزع سعيد بن خزر الى صنهاجة وانحرف عن طاعة الامويين فاكرمه يوسف (بلكين) بن زيرى وزوج ابنه فلفلا من ابنته ، ثم تعاقبت احداث جعلت فلفلا يتغير على صنهاجة ويخذل باديس حفيد صهره يوسف فشبت بينهما حروب سنة 389 ، = 999 وتجددت الحرب بينهما كذلك ، فافلت فلفلا الى نواحي قابس فالتفت حوله زناتة وتجمع بجموعه فاحتل طرابلس سنة 391 ، = 100 وأسس فيها دولة تقلبت حياتها بين مد وجزر بسبب النزاع المستمر مع صنهاجة حيث كانت نهايتها عام 540 = 1145 فى ايام محمد ابن خرزون بن خليفة الذي قرب اليه شيوخ بني مطروح من رؤسائها ، وبنهايتها استولى الاسطول الصقلي على طرابلس حتى تدخلت دولة الموحدين المغربية . اما عن الولاة الذين حكموا فى طرابلس من بني خرزون فهم على التوالي : فلفلا بن سعيد ، ـ وروا بن سعيد ـ خليفة بن وروا ـ سعيد بن خزرون ـ خزرون بن خليفة ابن وروا ـ المنتصر بن خزرون ـ خليفة بن خزرون ـ محمد بن خزرون بن خليفة . التيجاني : الرحلة ص 276 . المنهل العذب جزء 1 ص 128 ـ 131 . احسان عباس ص 136 .

(2) استناب العبيديون زيري بن مناد الصنهاجي على افريقية حينما رحلوا لمصر سنة 362 = 973 وبعد زيري كان يوسف ثم بنوه الى ان انتهت الى المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري بن مناد ، هذا المعز الذي نقض عهد العبيديين ودعا للعباسيين ببغداد . ابن غلبون : التذكار 23 ـ 27 .

(3) ابن الرقيق هو اسحاق ابراهيم بن القاسم الرقيق ، وقد اعتمده الرحالة التيجاني فنقل عنه كثيرا . حسن حسني عبد الوهاب : المنتخبات التونسية ص 71 ـ 73

(4) هكذا يرسم فى جل المصادر التاريخية القديمة والقصد الى روجار او ROGER, 2 روجي الثاني . ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالامامة، تحقيق ونشر ع. التازي ص 115 التيجاني : الرحلة تقديم ح. عبد الوهاب ص 333 ـ 334 . ابن غلبون : التذكار نشر الزاوي ، ص 57 هامش 1 .

(5) سقطت من اصل المخطوط كلمة ميخائيل والصواب اضافتها ...

جرجير بن (مخائيل) الى اهلها لما اظهره (1) من تملك غيرها من البلاد الساحلية وابقى فيها جنده من المسامين والصقليين وغيرهم ، وولى على البلد شيخه ابا يحيى بن مطروح (2) التميمي وجعل قاضيهم رجلا منهم يعرف بأبي الحجاج يوسف بن زيرى هو صاحب التأليف المعروف « بالكافي في الوثائق (3) » فكانت احكام المسلمين كلها مصروفة الى واليهم وقاضيهم ولم يكن النصراني يتعرض لشيء من احكامهم واقامت تحت تغلب النصارى اثنى عشر عاما او نحوها الى ان افتتح الموحدون اكثر بلاد افريقية فخاف النصارى ان يكاتبهم اهل طرابلس فأحبوا ان يثيروا بينهم عداوة فأمروهم ان يصعدوا المنابر فيتكلموا في جهة الموحدين بسوء فأعظم اهل طرابلس ذلك واجتمعوا الى قاضيهم ابي الحجاج فسفر (4) بينهم وبين النصارى واعلم النصارى عنهم انه لا سبيل الى نيل ذلك وان الامر انما كان انعقد الا يتكلفوا المسلمون (5)

---

(1) كذا في المخطوطة التي بين ايدينا ، ويتأكد ان تحريفا وقع ، والصواب اضمره لانه المناسب فان المحتلين كانوا يقصدون بحسن معاملتهم ان يشتروا ثناء الناس عليهم ليتمكنوا من مكاسب اخرى في جهات ثانية ، وقد كان هذا صنيعهم ايضا في (المهدية) عندما اقتحموها ، وقد نقل المؤرخ ابن غلبون « ان قواد روجير وزعوا على المواطنين الطعام واقرضوهم المال فصلحت احوالهم واغتبط الناس بالمهدية لما راوا من عدل النصارى فعمرت احسن عمارة » اقول : وتلك دسيسة لا تخفى على الذين خبروا الاستعمار في القديم والحديث ، وقد ادرك القادة المغاربة آنذاك ما ينطوي عليه هذا « الاحسان » من تهديد لبلادهم فتداركوا الامر وتحرك عبد المؤمن لتطهير المهدية ... ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ، تحقيق ع. التازي ص 120 — 121 . ابن غلبون : التذكار نشر الزاوي ص 52 .

(2) ابن مطروح هذا هو اول سفير عرفه التاريخ ، راح من طرابلس لمقابلة عاهل المغرب عبد المؤمن الموحدي ، راجع (الفصل الخامس بالعلاقات المغربية الليبية) .

(3) لم يضف الذين ترجموا ابا الحجاج هذا على ما نقله الشرقيُ الاسحاقي من كتاب الرحلة للتيجاني ، اما عن كتابه (الكافي في الوثائق) فقد حاولنا ان نجد له اثر يذكر في مختلف الفهارس التي استشرناها ولكنا لم نوفق للعثور عليه .

(4) سفر يسفر من باب ضرب يضرب يعني كان سفيرا بين الجانبين وليس من سافر ، ومن المعلوم ان هناك فرقا بين سفر الثلاثي وسافر الرباعي فان هذا من السفر بمعنى التنقل والرحيل ، بينما سفر الثلاثي تعني القيام بالمساعي الحميدة من اجل اصلاح ذات البين بين طرفين معينين وتلطيف الجو بين الناس ومنه الآية الشريفة : « سفرة كرام بررة » ، ومنه قول الشاعر العربي يمتدح نفسه :

ولا ادع السفارة بين قومي ولا امشي بشر ما مشيت !

ولا شك انها مهمة بقدر ما تعبر عنه من كبير تشريف ، فيها كثير من العناء والتكليف !

(5) عبارة التيجاني اسلم واوضح : « ان لا يكلفوا المسلمين بشيء ... »

شيئا مما يخالف دينهم ، وذكر اهل الدين بسوء مما يخالف الدين فان رضوا منهم والا سلموا لهم البلد وخرجوا عنه فأعفاهم النصارى من ذلك واحدث الله سبحانه عند اهل طرابلس عزما على القيام عليهم والتخلص من ايديهم فاسروا النجوى بذلك بينهم واتعدوا لليلة معينة ونصبوا تلك الليلة فى الطرقات خشبا واناشيط تمنع الخيل من الجرى فيها وثاروا عليهم فبادر النصارى الى خيولهم وركضوها فلا تجد مجالا فاخذوا قبضا باليد . وعاد البلد الى تملك المسلمين وكان هذا فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وحكم على البلد شيخه ابو يحيى بن مطروح وكان رجلا شهما حازما وصانع العرب المجاورين له فاستقر حاله ولما نزل الخليفة عبد المؤمن الى افريقية افتتح المهدية ووصلت اليه وفود البلاد وذلك فى سنة خمس وخمسين فكان من جملتهم وفد طرابلس وشيخه ابن مطروح فبايعوا عبد المؤمن ، وقدمه عبد المؤمن على اهل بلده فلم يزل محمود السيرة فيهم الى ان عجز فى ايام ابى يعقوب عبد المؤمن وقيده الهرم فطلب التوجه الى الحج فسرحه السيد ابو زيد بن السيد ابى حفص وهو اذ ذاك صاحب تونس فتوجه بجميع اهله فى البحر واستقر بالاسكندرية فمات بها . وبقية ذريته هنالك ومنهم رؤساء وادباء ، وفى فصل من مياومة الفاضل البيسانى (1) قال : وفى شهر رجب يعنى من سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل الى الاسكندرية فى البحر شيخ طرابلس ابو يحيى بن مطروح وهو شيخ كبير قد اضر وعجز عن الحركة وذكر باقى خبره . واهل طرابلس يتحدثون ان النصارى ملكوا بلدهم مرة اخرى وذلك ليس بصحيح (2) وانما اخذها النصارى من حين الفتح الاسلامى هذه الاخذة فحسب ، غير ان تراقش (3)

---

(1) هو القاضي الفضل ابو علي عبد الرحيم بن محمد اللخمي الغساني المعروف بابن البيساني صاحب المياومة ، ينقل عنه الرحالة التيجاني كثيرا .

(2) الكلام منقول عن الرحالة التيجاني وهو كما ترى يخالف ما اشتهر عند اصحاب البلاد من ان بلادهم اخذت مرة ثانية ... واذا كان هذا التصحيح من لدن التيجاني الذي زار ليبيا من سنة 706 ـ 708 اذا كان صحيحا فانه بالنسبة للاسحاقي غير صحيح ، فان طرابلس استهدفت سنة 755 لاستيلاء الجنوبيين كما تحدث بذلك ابن خلدون وابن بطوطة والعياشي وابن غلبون ، ولذلك فان الاسحاقي فى نظرنا كان متابعا غير متحر فيما يقول كما سلف التنبيه له !!

(3) راجع التعليق رقم 5 صفحة 67 ابن صاحب الصلاة . تاريخ المن بالامامة ص 172 ـ التيجاني : الرحلة ص 103 ـ 104 ـ 110 ـ 111 .

وصل الى طرابلس من المشرق فى سنة ست وثمانين وخمسمائة وانه حصر طرابلس بمن التف عليه من العربان حتى استولى عليها وكانت اذ ذاك خالية من الاقوات والاجناد لانهم بعد بيعتهم لعبد المؤمن واستقرار بلدهم فى ملك الموحدين لم يتوقعوا ثائرا ولا مخالفا فملكها قراقش وبقيت تحت بيعتهم سنين يسيرة ثم انتقضت عليه هى وغيرها من البلاد فاظهر الهجرة الى الموحدين مخادعا واقام لديهم مدة ثم فرعنهم مبادرا الى قابس فاستولى عليها ثم الى طرابلس فملكها ايضا واقام بها حتى وصل اليه يحيى الميورقى من بلاد الجريد قاصدا حصاره فخرج اليه قراقش من طرابلس وترك نائبا عنه بها (ياقوتا) المعروف بالافتخار ، وكان اللقاء بينهما بالموضع المعروف بمجنن (1) من جهات طرابلس وهو الذى يقول فيه عبد البر بن فرسان :

الا لاسقى الرحمن (مجنن) قطرة ولا زال مغبر الجوانب مجنن

وخيب قطيسا (2) من الغيث كله ولا ابتل فيه الركائب فرسن

فانكسر قراقش كسرة شنيعة وتوغل فى جبال طرابلس وتبعه الميورقى اياما ثم رجع الى طرابلس فحصر بها ياقوتا المذكور فلم يقصر فى دفاعه وضبط البلد ضبطا عظيما فكتب الميورقى الى اخيه عبد الله وهو اذ ذاك صاحب ميورقة يطلب منه الاعانة ببعض اسطوله فوجه اليه قطعتين ضيق بهما على طرابلس تضييقا شديدا الى ان استولى عليها فامتن على اهلها بالعفو وحصل نائب قراقش فى يده فوجه الى ميورقة فى القطع التى وصلت اليه منها ، ولما حصل بها قيده عبد الله بقيد ثقيل وتركه بسجنها فلم يخرج منه الا بعد استيلاء الموحدين على ميورقة وقتلهم لعبد الله المذكور وذلك فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة فحينئذ خرج

---

(1) توجد فى النسخة كلمة (محسن) ولعل الصواب (مجنن) الذي هو المجينين مصغرا: واد تتجمع مياهه من جبال غريان على بعد 80 ك. م. جنوبي طرابلس . الزاوي : معجم البلدان الليبية ص 299 .

(2) قطيس بقاف مكسورة وطاء مشددة اسم موضع تحت جبال غريان من الجهة الشمالية من اخصب اراضي تلك المنطقة . تبتدىء من الغرب من حدود بئر الغنم وتمتد فى الشرق الى قرب بوغيلان . ابن غلبون ص 70 التعليق 4 ـ الزاوي : معجم البلدان ، ص 282 .

ياقوت وتوجه الى مراكش فبقى الى ان مات ، وترك يحيى ابن اسحق ابن عمه تاشفين بن الغازي نائبا عنه بطرابلس وخرج منهـــا فأقام بهــــا تاشفين المذكور مدة ثم ثار عليه اهلها واخرجوه منهـــا ودخلـــوا تحت طاعة الموحدين فتولت حفاظهـــم مدتهـــم ,والله غالـــب على امـــره (1) وبداخل مدينة طرابلس بطعاء متسعة يعرفونهـــا بموقـــف الغنـــم (2) يبيعون بها اغنامهم ومواشيهم ، وهنالك مسجد ينسب بناؤه الى عمرو بن العاصي (3) رحمه الله وفى هذا الموضع يقول ابو يحيـــى بن مطـــروح المذكور الخبر عن توجهه الى الاسكندرية :

---

(1) لقد كان تعبير التيجاني : فتولت حفاظم الى الآن . وقد غير الاسحاقي التعبير لمـا يقتضيه المقام .

(2) موقف الغنم : ارض متسعة فى طرابلس توقف فيها المواشي المعروضة للبيع ، ويذكر الشيخ الزاوي انها كانت تبتدىء من جامع احمد باشا من الشرق وتمتد شمالا الى برج الساعة وغربا الى سوق الرباع ... المعجم ص 326 — 327 .

(3) الكلام منقول من التجاني ... ولم اقف اليوم على مسجد بداخل المدينة يحمل اسم عمرو ابن العاص ولكني وقفت بضواحي المدينة بمديرية سوق الجمعة على جامع قديم المعالم سمي لي بجامع العمروص ، يقولون انه اختصار لكلمة عمرو ابن العاص يقع فى قرية تحمل بدورها اسم العمروص ويحتوي على اربعة بلاطات وثلاثة اساكيب وبئر قديم ، ولا بد ان نذكر هنا ان بعض الرحالة من امثال العياشي واليوسي تحدثوا عن سوق العمروس الذي يوجد فى هذه الناحية وفيهم من افادنا كابن عبد السلام الناصري ان ضريح ابن سعيد الهبري الذي افتخر به الانصاري فى قصيدته مع الشيـخ زروق يوجد هنا بقرية العمروس . وقد قرأت طرة على رحلـة اليوسي تكتـب (عمـروس) بالسين وتقول عنه انه من اصحاب الامام مالك ، وكان هذا مدعاة للرجوع لمصادر الفقه المالكي التي تحدثت عن ابن عمروس الذي انتهت اليه الفتيافي المذهب المالكي فى زمانه ببغداد ، على ان هناك ابن عمروس آخر من قرطبة ت 400 هـ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد المجلد 2 ، 339 عياض : المدارك طبعة بيروت ص 762 ابن فرحون : الديباج ص 273 ابن مخلوف : شجرة النور الزكية فى طبقـات المالكيـة ص 102 الناصري ابن عبد السلام ص 156 . المعجم ص 230 .

لوقفـــة عنـــد (بـــاب البحر (1)) ضاحيـــة
وبـــاب هـــوارة (2) ومـــوقـــف الـــغـــنـــم

اشهى الى النفس من كسر الخليــج ، ومن
ديــر الزجاج وشاطىء بركـــة (3) الخـــدم

قلت وقراقش المذكور من أمراء مصر قديما وكانت فيه رعونة رايت

---

(1) يذكرون ان باب البحر كان يطل من الناحية الشمالية من المدينة على جهة القلفـــول وبعد الاحتلال ازاله الايطاليون ، وقد سمي كذلك لانه ينفذ الى البحر .

(2) باب هوارة هو الفتحة التي يدخل فيها اليوم الى سوق المشير ، وهو باب فى السور القديم ويسمى كذلك لانه يجيز الى قبيلة هوارة الضاربة شرقي المدينة ، وقد يسمى هذا الباب باب عبد الله وفى المؤرخين من سماه باب البربر او باب الستارة او باب المدينة . هذا وهناك باب ثالث للمدينة يعرف بباب‌زناتة ينسب لهم لانه يؤدي الى مساكن قبائل زناتة الى جنوب غربي المدينة ، وهو المسمى اليوم « الباب الجديـــد » وقـــد نقش على هذا الباب ما يلي : « فى 25 رمضان المعظم 1282 الموافق 12 يبراير 1865 تقدم أهالي طرابلس بطلب الى والي الولاية الحاج احمد عزت باشا يطلبون منه فتـــح باب جديد بدلا من (باب زناتة) القديم الذي سد فى عهد علي باشا القره مانلي الثاني سنة 1248 أثناء الحرب الاهلية التي وقعت حينذاك ، وقد استجاب الوالي لرغبـــة الاهالي بفتح باب جديد فى عام 1865 ، ومن ذلك التاريخ اشتهر هذا الباب باســـم الباب الجديد . وكل من باب هوارة وباب زناتة وردا فى كلام ابي اسحاق الاجدابي : « اكتسبت العلم من بابي هوارة وزناتة » هذا وهناك باب رابع كان يحمـــل اســـم باب العرب يفتح نحو جنوب المدينة . العياشي : الرحلة ص 145 ابن غلبون : التذكار 59 معجم البلاد الليبية ص 43 ــ 44 ــ 45 .

(3) كـــل من كســـر الخليـــج وديـــر الزجـــاج وبركـــة الخـــدم امكنـــة بالاسكندريـــة ... ابن غلبون : التذكار ، نشر الزاوي ص 59 .

تاليفا للامام السيوطي سماه الفافوش ، في اخبار قراقوش (1) ، وبهذه المدينة مدارس ومساجد كثيرة ! فمنها مسجد الناقة (2) وهو العتيق اليوم عندهم يتحرون الصلاة فيه يوم الجمعة لانها للعثيق ، ومنها

---

(1) ورد في المخطوط : الفافوش والصواب الفاشوش وهو ضعيف الراي والعزم وقد وقفت في معجم المطبوعات على اسم كتاب يحمل عنوان (الفاشوش في احكام قراقوش) تاليف الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي المتوفي سنة 911 هـ قال في أوله : وبعد فقد سئلت في درسي بالجامع الطولوني في اواخر المحرم 849 هـ عن قراقوش هل له اصل في التاريخ ام لا ؟ وهل ما يعزى اليه من الحكايات المضحكة لها اصل ام لا الخ ... وجوابه عنه ، نسخة ، ضمن مجموعة في مجلد ، مخطوطة بقلم معتاد 194 مجاميع . كما توجد نسخة منه اخرى مخطوطة بقلم معتاد تمت كتابته يوم الثلاثاء الثالث عشر من شهر ربيع الثاني سنة 1077 هـ 416 مجاميع . هذا وقد وقفت على كتيب كذلك بعنوان (الفاشوش في حكم قراقوش) ولكنه منسوب لابن مماتي (من سلسلة كتاب اليوم) نشر عبد اللطيف حمزة ، وقد قال عن الكتاب انه كان من مخطوطات دار الكتب المصرية وابن مماتي اديب قبطي معروف ، لقد ورد في اول الكتاب ما يلي : « انني لما رايت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش ... صنفت هذا الكتاب لصالح الدين عسى ان يريح منه المسلمين .. » وقد أثرت نوادر عن سلوك قراقوش التعسفي حتى لقد اصبحت كلمة (حكم قراقوش) مثلا لذلك ، ومما يحكى عنه انه حكم ذات مرة بالاعدام على صاحب ركاب فرسه لانه قتل نفسا بغير حق ، فقيل له : انه لا يوجد احد مناسب لركابك ، فنظر الى رجل بالباب كان يضع اقفاصا، فقال لهم : اعدموا هذا بدله اذن !! وحكي انه كان له اعتماد سنوي مخصص للصدقات، وقد صادف أن جاءته سيدة تشكو أن زوجها توفي ولا كفن له ، جاءته في وقت كانت هذه الاعتمادات قد نفذت ، فاجابها : اما اعتماد هذه السنة فقد خلص ولكن اذا جاءت السنة الثانية فتعالى نامر لك بكفن ان شاء الله !!

(2) لقد استاثر الشرقي الاسحاقي بذكر اسم هذا الجامع : جامع الناقة الذي وصفه بالعتيق وذكر ان الناس يتحرون الصلاة لاجل عتاقته ، وقد ذكر ابن عبد السلام الناصري سهوا ان المسجد العتيق هو مسجد درغوت ... والواقع ان هذا المسجد يظهر عليه اثر القدم فهو يقع في صميم المدينة بين اسواقها المزدحمة ومنعرجاتها الضيقة واغلب سواريه من رخام مجلوب وقد استجد بناؤه ايام خلافة السلطان احمد خان الاول وقد نقش على رخامة باحد أبوابه قد لا تثير الانتباه ، نقش ما يلي :
« وبعد فقد استجد بناء هذا المسجد الاعظم المكرم صفرداى بن باكير قاصدا بذلك وجه الله العظيم مستمسكا بقوله عليه السلام « من بني لله مسجدا ولو بفحص قطاة بني الله له قصرا بالجنة » غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ، وكان الفراغ منه سنة 1019 اواسط رمضان » وقد عثرت في وثائق الاوقاف القديمة على ما يفيد ان صفرداى كان متواليا للحكم بطرابلس ... ويحكى رجال العلم في طرابلس سببا لطيفا لتسمية المسجد بجامع الناقة ، ان بعض الضيوف اراد ان يعبر لطرابلس عن ترحابها به فاهداها ناقة محملة بالتحف فقرروا ان يبنوا بتلك المبالغ جامعا فكان جامع الناقة ... المنهل العذب : ص 240 ـ المعجم ص 94 .

مسجد المجاز (1) وكان معروفا بسكنى ابى الحسن علي بن احمد بن الخطيب الطرابلسي اقام ساكنا به فيما يقال اربعين سنة ، وكان فقيها صالحا عالما زاهدا ، وله فى الفقه والفرائض والشروط تآليف مفيدة واقام اربعين سنة ام يضحك ، ونحوا من خمسين سنة لم يحلف بالله يمينا ، وقال له ابن اخيه عندما املى وصيته انسيت الكفارة ؟ فقال لولا انى فى الموت ما اخبرتك ما حلفت بالله منذ كذا وكذا يمينا محقا ولا مبطلا وما علمت ان على يمينا اكفرها . وبخارج المدينة مساجد قديمة تزار وقد دثرت ، منها مسجد الشعاب (2) ذكره البكري واثنى عليه وهو منسوب لابى محمد عبد الله الشعاب احد الصلحاء الفضلاء من اهل طرابلس ونسب المسجد المذكور اليه لانه هو الذى بناه ولزم السكنى به ، ومنها مسجد خطاب (3) وهو بخارج المدينة من جهة شرقيها على البحر ينسب للشيخ خطاب البرقى الرجل الصالح ، ومنها المسجد المعروف بالجدود ويعرف ايضا بمسجد الجدة لان احدى جدات بنى الاغلب ولاة افريقية بنته وهو بخارج المدينة من جهة جوفيها مشرف على

---

(1) ذكر التيجاني مسجد المجاز هذا ، ومنه استقى الاسحاقي معلوماته ، انظر التيجاني ص 251 .

(2) يلاحظ ان الشرقي الاسحاقي اختصر الكلام على مسجد الشعاب الذي يعتبر الى الان من اهم مزارات مدينة طرابلس ، يرجع لاوائل المائة الثالثة الهجرية ، وهو مبنى على شاطىء البحر مباشرة قبالة فندق المهاري يلوح عليه انه كان رباطا للدفاع عن البلاد وقد كان سيدي الشعاب اتم بناءه ولزمه ، قياما بواجب المرابطة ، والمزارة تقع على مدخل الرصيف البحري الذي يحمل (رصيف الشعاب) بعد ان كان يحمل اسم رصيف احمد القره مانلي ، ويوجد بجانبه ضريح سيدي سليمان احد اولاد سيدي عبد السلام الاسمر ، وهو جد اولاد دخيل . معجم البلاد الليبية ص 313 .

(3) اختصر الاسحاقي الكلام اختصارا حول خطاب هذا ، وقد ذكر التيجاني ان كنيته ابو نزار وذكر له خصائص ومميزات ولا بد ان نثير الانتباه هنا الى ان الشاعر الشيخ احمد بن عبد الدائم الانصاري ذكر فى قصيدته التي رد فيها علي الشرقي الاسحاقي ، ذكر فى معرض افتخاره برجال طرابلس انها تضم العدد العديد من الرجال منهم الاويسيون يعني المنتسبين لاويس القرني ت 37 هـ احد المتصوفة النساك العابدين ممن كانوا يسكنون القفار والرمال ، كما ان فيها طائفة مهمة من الجنيديين يعني اللذين ينسبون للجنيد البغدادي (ت 267 هـ) احد العلماء المتصوفة ،

(وكم من أويسى بهاذي معارف   وكم من جنيدي على شرفاتها

وخطاب هذا من الاويسين الذين تحتضنهم طرابلس ، التيجاني : الرحلة ص 248 . ابن غلبون : التذكار 218 ، الانصاري : نفحات النسرين ص 78 .

المقابر (1) ، وبها مدارس واحسنها المدرسة المنتصرية (2) التي كان بناؤها على يد الفقيه ابى محمد عبد الحميد بن ابى البركات بن ابى الدنيا رحمه الله ، وبين هذه المدرسة وباب البحر « مبنى » من المبانى القديمة العجيبة ، وهو شكل قبة من الرخام المنحوت ، المتناسب الاعالى والنحوت لا تستطيع العصبة القوية نقل القطعة الواحدة منه قامت مربعة فلما وصلت الى السقف ثمنت على احكام بديع واتقان عجيب صنيع وهى مصورة بأنواع التصاوير العجيبة نقشا فى الحجر ، وعلى بعض قطعها من الجهة الشمالية اسطر مكتوبة بخط رومى ، وذكر بعض علماء طرابلس انه وجد نصرانيا يعرف ذلك الخط فذكر له ان نصه : امر ببناء هذه الكنيسة فلان بن فلان من حلال ماله الذى اكتسبه من

---

(1) يظهر لي ان مسجد الجدة المنعوت بانه خارج المدينة ، وانه من جهة جوفيها وانها مشرف على المقابر ، يظهر لي انه كان على اكمة المقبرة المنسوبة للصحابي الجليل سيدي منيذر ، ونتيجة لهذا فان البيتين اللذين وجدا على قبر هناك :

هي فى جوارك يا منيذر فاحمها ... ومن المروءة ان يعز الجار
حاشا لفضلك يا رفيق محمد ... من ان تمس مجاوريك النار

اقول البيتين يقصدان الى جدة بني الاغلب المشار اليها وليس الى زوجة احدهم ... وهكذا نجمع بين ما اثر عن الناس وما ورد فى كتب التاريخ المتداولة . المعجم ص 312

(2) اختصر الاسحاقي بعض الشيء مما ورد فى رحلة التيجاني حول هذه المدرسة التي كانت مفخرة البلاد ، وهكذا فكما عرفت بغداد مدرستها المستنصرية (نسبة الى المستنصر بالله بن الظاهر) سنة 631 هـ عرفت طرابلس مدرستها المنتصرية منذ سنة 658 هـ (نسبة للمنتصر الحفصي) فقد شيدها هذا الامير بواسطة ابن ابي الدنيا بين سنتي 555 و 558 فى عهد حكم الموحدين ، وينعت التيجاني هذه المدرسة بانها من احسن المدارس وسعا واظرفها صنعا ... وقد نقل من خط ابي الحسن علي بن موسى بن سعيد فى بعض تقاييده انه اي ابا الحسن بكر يوما الى هذه المدرسة فقعد مسرحا طرفه فى روضة حبق حبست حاستي بصره وشمه ثم قال :

يا حبذا نسمة هبت لناشقها ... غب الكرى سحرا من روضه الحبق
حسبتها عندما هبت وقد نعست ... ببلة من نداها روح منتشق
قرنفل الهند قد وافي التجار به ... محافظين على نشر له عبق
فعندما فضه الدارى ذكرني ... بطيبه طيب عيش مرلي انق

بيد انه ـ مع الاسف الشديد ـ لم يبق اى اثر لمعالم هذه المدرسة العظيمة حتى لتختلف الآراء اين كانت بالضبط ؟ ومن اعجب ما سمعته حول أسباب طمس معالمها ان طلبة العلم كانوا فى صدر من قاطعها بل وخربها نقمة على اسم المنتصر لما انه اساء اساءته المعروفة للمؤرخ العلامة الشهير ابن الابار ... التيجاني : الرحلة ص 251-252 ـ 275 . ابن غلبون : التذكار 228 ـ معجم البلاد الليبية ص 304-305

غلة زيتونة وفى يوم اتمامه لبنائها او يوم شروعه فى بنائها وصل اليه الخبر من الشام ان نبيا من العرب ظهر فى الحجاز اسمه محمد بن عبد الله (1) . وبين القصبة وهذه المدرسة المتقدمة جامع طرابلس الاعظم الذى بناه بنو عبيد وهو جامع متسع على اعمدة مرتفعة وهذا الجامع خضع للدهر واستكان ودخل فى خبر كان (2) . وذكر البكرى ان بمدينة طرابلس بئرا تعرف ببئر ابى الكنود من شرب منها فقد عقله ، وانهم يعيرون الشارب منها . ومن اتى منهم بما يلام عليه قيل له : لاعتب

---

(1) حديث الاسحاقي عن هذا المبنى (ماركوس اوريليوس) او مخزن الرخام ، مقتضب جله من كلام التيجاني فى رحلته ، والقصد ببعض علماء طرابلس الى الاستاذ ابي البركات ابن الفقيه ابن محمد ابن ابي الدنيا الذي نقل ذلك عن والده الفقيه ابي محمد كما ورد موضحا عند التيجاني ، والجدير بالذكر ان اول رحالة مسلم تحدث عن هذه (القبة) هو الرحالة المغربي الامام العبدري سنة 688 هـ (1289 م) فهو الذي اثار انتباه سائر من وردوا بعده من امثال التيجاني فيما بعد ، لقد افاد انها من بناء الاوائل وانها فى غاية الاتقان ونهاية الاحكام الى آخر كلامه .. ومن المفيد ان نعلم ان معالم هذا الاثر ما تزال شاخصة الى الآن على مقربة من ضريح سيدي عبد الوهاب القيسي وجامع قرجى فى صميم (اويا) طرابلس القديمة ، وكان اللورد باغوت رسم له رسما جميلا منذ عام 1789 وتقدم لعلي باشا القرمنلي يقترح ازالة الحوانيت المحيطة بالقوس حتى يبرز سقفه الجميل للعيان .

اما عن تاريخ البناء الذي ذكره مؤرخونا والذي ـ على ما نقل عن الترجمان ـ كان يصادف ظهور النبي عليه الصلوات فيظهر ان هناك ضرورة لاستشارة المختصين ، وبهذا الصدد يفيد سلفاتوري اوركيما ان الكتابة التكريسية المنقوشة على القوس تسجل انه شيد منذ عام 163 بعد الميلاد من طرف احد حاكمي (اويا) اى قبل ميلاد النبي عليه الصلوات بزهاء خمسة قرون ...

ان للقوس اربع واجهات ، واهم الواجهات الاربعة ـ الشرقية والغربية ـ ... وعلى المصطبة الرخامية للقاعدة شيدت قبة ذات ثمانية اضلاع ، وتمتاز واجهات القوس علاوة على الساعاتها المختلفة بعدة نقوشات تختلف عن بعضها . المعجم ص 200

(2) كما فعل التيجاني فقد حاول مقرر الرحلة تحديد جامع طرابلس الاعظم الذي كان هنا، والذي كان يقع بين القصبة حيث مقر الحكومة ، وبين المدرسة المنتصرية وقد اختصر الاسحاقي ما ورد فى مشاهدات التيجاني من ان سقف المسجد حديث التجديد وان به منارا مرتفعا قائما من الارض على اعمدة مستديرة فلما تم نصفه كذلك سدس ، وكان بناؤه فى العام المكمل للمائة الثالثة على يد ابن طرابلس خليل بن اسحاق ، ويضيف التيجاني ان ابا العباس احمد بن عبد السلام الاموي اخبره بانه نقل من خط القاضي ابن موسى ابن معمر ان شكرا المعروف بالصقلي ابنتي الماجل الذي بالجامع المذكور من الجهة الجوفية وكذا القبة التي عليه فى سنة تسع وستين ومائتين ، وابن خليل ابن اسحاق هو الذي ابتنى المنار الذي به .
التيجاني : الرحلة ، ص 241 ـ 246 ـ 253 . المعجم ص 9 ـ 92 .

عليك شربت من بئر ابى الكنود (1) انتهى كلام البكـــري ، وزرنا بهـــذه المدينة قبر الوالى الصالح سيدى عبد الوهاب القيسى ، يعظمه اهــل طرابلس كثيرا يحكون عنه انه راى النبـــى صلى الله عليه وسلـــم فى المنام نحوا من اربعمائة مرة وانه كان يشاور النبى صلى الله عليه وسلم فى اكثر اموره فلا يفعل ما يفعل الا باشارته وهذه المنامات مدونة عنـــه ووجدناها بعد موته مكتوبة عنده بتواريخها ، يذكر كل ليلـــة ومـــا راى منها (2) ، وزرنا بها قبر الولي الصالح سيدي سالم المشاط (3) وقبـــر الولي الصالح سيدى يعقوب (4) وقبر الولي الصالح سيـــدى درغـــوت

---

(1) كل الكلام منقول من التيجاني وقد اندثرت معالم هذا البئر اليوم هذا وقد داينـا فى كتب الرحلات على سماع خاصيات خاصة للعيون او المياه التي توجد فى بعض جهات الدنيا ، ويحكى بصدد هذا البئر ان حاكم البلاد تجنب الشرب منهـا هو ووزيـره ، وكان يجلب ماء شربه من عين بعيدة ... وحدث ان ابناء البلاد جميعهـم ـ وكانـوا يقتصرون فى شربهم على مياه بئر ابى الكنود ـ امسوا على طرفي نقيض مع حاكـــم البلاد لانهم كانوا يفكرون على غير طريق ... وقد اقتنع الحاكم أخيرا عندما اصطدم بسلسلة من المشاكل مع محكوميه ـ ان من واجبه ان يتناول هو ايضا شربه من مـاء بئر ابي الكنود حتى ينسجم مع تفكير الناس .. والا فسيصبح بالنسبة اليهم هو الذي يفقد عقلـــه ...

(2) يعتبر سيدي عبد الوهاب من الرجال الاويسيين الذين تقصد روضتهم للتبرك من كل وارد وصادر ، وقد نقل الاسحاقي هذه المعلومات من التيجاني ، وقد اسهب صاحب كتاب الاشارات فى الحديث عن السيد القيسي ...

(3) يعتبر سيدي سالم المشاط المنافي ـ المتوفي فى القرن التاسع ـ من المشاهد التي تواتر زيارتها فى طرابلس ولا تكاد تخلو رحلة من التنويه بسيدي سالم الذي تضفـي على روضته حلة من البساطة والمهابة فى الوقت الواحد ، جددت بناياته سنـة 1080 من طرف رمضان بن عثمان رايس . وقد كان ابو سالم العياشي يفضل دومـا النزول على مقربة من هذا الضريح ... واسرة المشاط منتشرة فى جل اقطار الشمال الافريقي بالاضافة الى بلاد المشرق وخاصة بغداد ، وتوجد ارض غربي طرابلس تحمـل اسـم المشاشطة غير بعيدة من ضريح سيدي سالم بناني ... انظـر كتاب الاشارات ... وكتاب سلوة الانفاس المجلد 2 ، ص 229 .

(4) سيدي يعقوب هذا احد من عشرات المشاهد فى طرابلس وقد كان منذ نحو نصف قرن زاوية للطريقة العيساوية المعروفة عند الناس بالزاوية الصغيرة مع العلم ان الزاوية الكبيرة هي الزاوية القادرية ويلاحظ ان الاسحاقي ـ وهو من مدينة مكناس حيـث ضريح سيدي محمد بن عيسى ـ يلاحظ انه يزور هنا الزاوية العسوية (راجع الميزانية الاحتياطية لادارة الاوقاف بطرابلس لعام 1919) .

قالوا : هذا الذي استخلص (1) طرابلس من يد النصارى بعد الفتـــــح الاسلامي ، وبنى بها مسجدا كبيرا (2) تقام فيه الخطبة الآن ، ولقينـــا بها من الطلبة المنتسبين لانتحال العلم الفقيه الوجيه السيد محمد التونسى وجدناه بطرابلس نازعا عن بلده تونـــس ، اوجس فى نفسه خيفـــة من

---

(1) يعتبر درغوت او طورغود من ابرز القواد الاتراك الذين ولاهم السلطان سليمـان الاول على طرابلس بعد مراد اغا منذ ربيع الاخير سنة 960 هـ على ما يذكر ابن غلبون ، ولابد ان نعطي وزنا لعبارة الاسحاقي هنا . قالوا : هذا الـذي استخلص طرابلس من يـد النصارى ... فنحن على علم من ان الوجود العثماني فى ليبيا كان فى البداية انقاذا للبلاد من (منظمة الفرسان ـ مالطة) وهكذا تكون نجدتهم لنزعة دينية لا تخفى مقاصدها بل ان فى المؤرخين من يعتقد ان هناك وفدا راح من ليبيا للاستانة للاستنجاد ... لكنا مع هذا لا ننسى ان هناك وجهة نظر اخرى تقول ان الفرض كان يستهدف التوسع ليس غير ، بدليل ان اسماء اعضاء الوفد المستنجد ظلت مجهولة ! ولعل المسالـــة موضوعة فى كل البلاد التي حل فيها العثمانيون بركابهم ، واعتقد ان من باب الانصاف ان نزكي اجتهاد اولئك الذين ادركوا ان بعض البلاد اصبحت او كادت فريسة لاستعمار أجنبي للقضاء على المقومات الاسلامية ... ابن غلبون : التذكار ص 123 ـ 124 . سليمان الباروني : صفحات خالدة من الجهـاد ص 58 ـ 59 . ساطـع الحصـري : البلاد العربيـة والدولـة العثمانيـة ص 28 . خليفـة محمـد التليسـي : طرابلس تحت حكم الاسبان وفرسان مالطة (معرب) ص 9 (1969 . المعجم ص 92) .

(2) لكثرة أهمية جامع درغوت اعتقد بعض الرحالة من أمثال ابن عبد السلام الناصري انه المسجد العتيق ونحن نعلم ان جامع الناقة يظل المسجد الذي يستحق فى نظرنا هذا النعت ، ومن المعلوم انه اسس سنة 958 وقد بنى قسم منه من طرف الوالي على باشا سنة 1013 ويتساءل لماذا لم يذكر الاسحاقي العدد العديد من المزارات الهامة الباقية من امثال الفقيه الحطاب المنقر سنة 954 مع شهرته بطرابلس هذا ولم يقع ذكر لجامع احمد باشا لانه كان لم ينشا بعد . الزاوي : اعلام ليبيا ص 311 الميزانية الاحتياطية لاوقاف طرابلس 1919 . المعجم ص 87 .

اميرها الحسين بن على (1) ، والفقيه الاديب السيد محمد بن مقيل الطرابلسى (2) والفقيه النبيه السيد محمد بوقلال المغربى واخاه السيد

---

(1) من الدول التي توالت على الحكم بتونس بعد الفتح العثماني الدولة الحسينية التي اعقبت الدولة المرادية ، وكان ذلك سنة 117 هـ 1705 م كان اول باى لها حسين بن علي تركي ... كان فى اول امره تبنى ولد اخيه محمد علي باشا فنشا فى رعايته وضم اليه العلماء ولما بلغ من العمر سبع عشرة سنة اولاه السفر للمهمات فجلى فى الميدان وقصد به البلاد ورمى به فى نحور العظائم ، وفى سنة 1137 (1724) قوى عزم الباى حسين على تكليف ابنه من صلبه بالمهمات التي كان خصصها لولد اخيه ، وهكذا اعطى لهذا لقب باشا عوضا عن منصبه القديم وكان يظن ان ابن اخيه سيقنع بهذا التشريف بيد ان هذا استصغر الخطة وخاصة عندما فارق ما اعتاده من الاسفار ولذة التنقل من دار الى دار ... وقد كان من شيوخه العلامة سيدي محمد التونسي الذي بلغ الملك عنه انه ربما كان يغرى عليا بطلب الملك ، الامر الذي دفع بالباي لاقصاء محمد التونسي عن البلاد ونفيه الى طرابلس حيث اجتمع بالوزير الاسحاقي ، والطريف فى صنيع الوزير المغربي انه كان شحيحا جدا بمحتوى الحديث الذي دار بينه وبين اللاجىء التونسي ، ولا اعتقد ذلك الا ضربا من التهرب مما قد يعكر الجو بينه وبين اولئك الدين ابعدوا الاستاذ التونسي وهو تصرف فى السياسة ، تقتضيه الكياسة ، ولمن يريد المزيد عن الثورة التي قام بها علي باشا ان يراجع كتاب اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان لاحمد ابن ابي الضياف الجزء الثاني ص 106 .

(2) ابن مقيل هذا من عيون اساتذة طرابلس وبها ولد ولم يرحل عنها وقد اخذ عن الشيخ احمد المكني وغيره من العلماء وخاصة من الوفود القادمة على البلد ، وقد تولى الافتاء بالمدينة عند كبر سن استاذه وصهره الشيخ أحمد المكني ، وكان الى جانب تضلعه من الفقه المالكي شاعرا مجيدا ، من شعره قصيدة يخاطب فيها الاستاذ العالم ابا عبد الله محمد بن احمد بن الامام لما وفد على طرابلس من بلاد المغرب :

لقد لاح فى أفق الذكاء ذكاء   به انجاب عن وجه العويص غطاء

رئيس له سلطان كل رياسة   اذا ما تراءى تقهقر الفصحاء

وهناك جامع بطرابلس يحمل اسم جامع ابن مقيل اسسه ابو عبد الله المكني المدفون بداخله لكن الذي كان يتولى الامامة به هو ابن مقيل .
النائب : النفحات 133 ـ 134 ـ الزاوي : اعلام ليبيا 298 ـ 299 . الميزانية الاحتياطية لادارة الاوقاف بالقصر الطرابلسي لعام 1919 .

احمد (1) ، والفقيه الاديب السيد محمد الشريف الفرجاني له مشاركة تامة فى فنون من العلم ، وقد انشدني بنفسه ممتدحا متوددا لا ممتحنا (2) ، وعلى كل حال فما رأيت بهذه المدينة لهذا العهد ما بروق

---

(1) نعت الاسحاقي الاخوين بوقلال بانهما مغربيان ويظهر من حديثه انهما من الاسر المغربية العديدة التي كانت تقيم بطرابلس ، وقد تعرضت اثناء حديثي عن العلاقات المغربية الليبية لبعض أفراد الجالية المغربية التي كانت تقيم فى ليبيا والتي استدعت فى بعض الاحيان تنصيب (وكيل) عليها ...
اما عن أسرة بو قلال واقلال او القلال او الكلالي (بالكاف المعقودة) فهي مغربية صميمة ورد ذكرها فى تواريخ المغرب ، ومن المهم ان نعلم ان مدلول الالفاظ الاربعة واحد فكلاها يفيد النسبة الى القلال جمع قلة ونؤكد على كلمة اقلال المبدؤة بالالف فهي تفيد باللغة البربرية النسبة ، فعندما تقول : اعياش كانك قلت : العياشي او احنصال : الحنصالي الخ .. والى اسرة آقلال هذه ينتسب الاستاذ ابو عبد الله محمد أقلال شيخ العلامة الولهاصي احد اعلام الدولة الاسماعيلية وجهابذتها النقاد ، كما ينتسب اليها الرئيس سيدي المجذوب اقلال الذي كان ضمن زعماء عدوة اللمطيين (فاس) الذين رفعوا مع حلفائهم رؤساء عدة الاندلس (من فاس أيضا) منهاج عمل للامير مولاى احمد الذهبي ابن السلطان المولى اسماعيل تبعته بيعة فاس له سلطانا على البلاد كما تبع ذلك تلاوة رسالته لاهل فاس بصحن جامعة القرويين ...
الاتحاف 1 ر 291 – 4 ر 99 ر 303 .

(2) اسرة الفرجاني اسرة شهيرة وهي نسبة فى الاصل لقبيلة الفرجان ... وقد وقفت على مزيد من التعريف بالشريف الفرجاني هذا فى رحلة الشيخ ابي مدين بن أحمد بن الصغير الدرعي المحفوظة بالخزانة العامة تحت رقم 297 / ق حيث ان هذا الشيخ اجتمع بالفقيه الشريف الفرجاني ، وقد نعته بالعلم والعمل قال : وتكلمت معه فى مسائل من الفقه والحديث ومع تلميذه الفقيه السيد بن ناصر وادخلنا داره واكرمنا والتقينا مع ولده الانجب السيد محمد الذي تكلم معنا فى مسائل من الشعر وذكر قصيدة مدح فيها المسجد الذي انشاه الباشا هناك يعني احمد القر مايلي (1711–1745) ... ومعلوم ان الشيخ الدرعي قام برحلة عام 1152 هـ (راجع حديثنا الخاص بليبيا عند الرحالة المغاربة) ومما يلفت النظر ان لا نجد أثرا لهذا العالم الجليل فى ابن غلبون معانه معاصر له ... فهل هناك شيء بينهما ؟ وهل اتصال الاسحاقي بهذا دون ابن غلبون كان مما غذى الجفاء بين الزائر والمزور ؟ على كل حال فانه يتضح ان العالم (بفتح اللام) الذي اجتمع به الاسحاقي كان غيره الذي عنى ابن غلبون بالحديث عنه فى كتابه ... لا بد ان هناك حلقة مفقودة فى الرباط الذي كان ينبغي ان يصل بين الرجلين ... وهل ان الاسحاقي ذهب ضحية لمعلومات غير مضبوطة اعتمد فيها على شريف الفرجان ؟ !

الطرف (1) ، ولا ما يحصره الوصف ، ولا ما يحصله به الانس ، ولا ما تطمئن به النفس ، بلدة شعثة الساحة ، لا يجد القلب فيها راحة ، ضعيفة المعاش ، عديمة الرياش ، شابت فيها الحضارة وشبت بها البداوة ، واهلها فى قلوبهم مرض ، وعلى ابصارهم غشاوة ، ويكفى فى وصفها قول العبدرى فى رحلته بعد تأمله فى ذهابه وجيئته ، ومدينة طرابلس هى للجهل مأتم وما للعلم بها عرس ، اقفرت ظاهرا وباطنا ، وذمها الخبير بها سائرا وقاطنا ، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخلب ، وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطب ، اكتنفها البحر والقفر ، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر ، وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر ، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا ، ولا تخوض فى ارحابها حوضا ولا نهرا ، ولا تجتلى روضا يحوى نورا ولا زهرا ، بل هي اقفر من جوف حمار واهلها سواسوة (2) كأسنان الحمار ليس على ناشىء منهم فضل لذى شبيه ، ولا لذى الفضل بينهم هيبة ، ترى اجساما حاضرة ، والعقول فى عقل غيابات الغيبة ، وملابس يلبسها ليلبس بها من ملأ من العيوب العيبة ، الى بخل لو مازج ماء البحر جمد ، او خالطه الهواء سكن فى آذار وركد ، وخلق يضيق به

---

(1) عجيب جدا هذا التنقل الفجائي من حديث ندى عن شخصية لها مشاركة تامة فى فنون من العلم ، الى حديث ناشف عن طرابلس ، كان هذا التنقل فى نظرنا يحتاج - على الاقل - الى مقدمات تهيىء النفوس الى الاستعداد لسماعه لكنه اتى على هذا الشكل يعبر عن نقمة كان يحس بها الاسحاقي لسبب او آخر والكمال لله ، واذا كانت هذه النفثات - التي استعارها الاسحاقي من العبدري - قد اثارت الشاعر الانصاري والمؤرخ ابن غلبون فانها كذلك كانت محل نقد من الادباء المغاربة انفسهم كما أسلفنا وفيهم من لم يتردد عن نعت الاسحاقي بالضال المفتري كما فعل ابن عبد السلام الناصري ، وخلافا لما اعتدناه فى الرحالة من اعتماد جلهم على من سبقه ، فان احدا ممن آتى بعد الاسحاقي لم يعر انتباها لما قاله عن طرابلس واكتفى معظمهم بالاقتداء بالرحالة ابى سالم العياشي الذي خالط سائر الاوساط وامتزج بمختلف الطبقات ..
وان عدم انهاء الرحلة بالكتابة من قبل الاسحاقي ليضع فى نظرنا علامة استفهام حول السبب ؟ فبالرغم من ان السلطان المولى عبد الله حبس المكتوب منها على خزانة القرويين الكبرى بفاس وبالرغم من احتمال ان الاسحاقي توفي قبل التمكن من اكمالها ، بالرغم من ذلك لا نستبعد ان تكون هنالك مواخذة من السلطان المولى عبد الله على الاسلوب الذي تناول به الاسحاقي بعض النقاط سيما وقد تعودنا من الملوك العلويين كرههم الشديد لكل همز ولمز فى الاباعد بله الاقارب ...

(2) يقال سواس وسواسوة وسواسية كذلك ، ويلاحظ ان الليبيين يستعملون كلمة سواسوة كثيرا للتذليل على التساوي .

متسع الفضاء ، ونزق يحق له فى ذمهم كشف الغطاء ، واذهان اربت فى الضيق على الخاتم ، سواء لديها من حارب ومن سالم :

كأنهم من ضيق افهامهم — لم يخرجوا بعد من العالم

فسبحان من خلقهم . واهل تونس على طرفى النقيض ، اولائك فى الاوج وهاؤلاء فى الحضيض . انتهى كلامه (1) ، ولو رآها لهذا العهد لزاد لومه لاهلها وايلامه (2) ، ولاكبر ، ان تمر له على فكر ، او يخطر بباله لها ذكر ، ومالها اليوم فضيلة ، سوى انها يجتمع بها ركب الحجيج ، نعم الفتى وبئست القبيلة وحاجتهم الى الحجاج ، اشد من حاجتهم اليهم فى اقامة معاشهم ، فهم يرتقبون ورودهم ، ويحمدون مسيرهم وقعودهم ، الى برغوث بها يمنع النوم الاجفان ، ويلج الآذان من غير استئذان ، ولو كان مما يوسق لملئت منه الاجفان ، وماء ملح آجن ، وغاية شربهم مما ضمنته المواجن ، التي يملؤونها من ماء المطر التجمع من السطوح ، استغفر الله من ذم ثمارها على التعميم فان بها نوعا من اليم ، الحلو المسمى باللشين ، لا يكاد يوجد فى ارض : طيب نفحة ، ورقة قشرة ، وصدق حلاوة ، راينا هذا اليم يجلب الى الحضرة العلية بالله : مكناسة من مدينة تطاون ومن مدينة سلا ، يرون ان له فضلا ومزية على ما يوجد منها بغيرهما وهذا الذى بطرابلس احسن من ذلك وافضل ، والا مرساها فان بها مرسى قريبة من البر واسعة جدا تصطف بها المراكب اصطفاف الجياد فى اريها ، وفى ذلك مرىء عجيب تنبسط له النفس بعض الانبساط وانشدنى (3) بعض طلبتها للفقيه السيد محمد القروى (4) شهر بالاضرم :

---

(1) يعني كلام العبدري فى رحلته .

(2) كان الاسحاقي لم يشفه كل ما قاله ، وكل ما نقله عن العبدري فعاد ليؤكد عن مشاعره فى اسلوب مرير ، ولم يتنازل لامتداح اي شيء فى طرابلس اللهم الا ما كان من ثلاثة اشياء : نوع اليم الذي استاثرت به اجنتها ، ومرساها العظيم الذي ازدان بعدد وافر من المراكب ، وتصميم المدينة الذي كان يشبه فى نظره تصميم مدينة الرباط .

(3) هذه فقرة مقحمة هنا اقحاما ولعل محلها كان قبل ان يضطر الاسحاقي لمدح المزايا الثلاثة فى طرابلس .

(4) لم نجد تعريفا بالفقيه السيد محمد القروي ولا ندري هل ما اذا كانت له صلة بالفقيه الاديب احمد القروي المتوفي سنة 1113 . ابن غلبون : التذكار ص 232 .

•

يـــا عالمـــا حل اطرابلس مغتبطا — بهـــا رياسة علم قصـــر التعبـــا
دار منـــارة جهـــل وهى مقبـــرة — للعلم ما ان بها مأوى الى نجبـــا
من حلها ثاويا لم يخل من نكـــــد — فى النفس والمال او من لـــه صحبا
عجبت من ذى تقى يرضى بها وطنا — ومـــا يكابـــد الا الهول والعطبـــا
ارحل عن بلد ذو العلم تخفضـــه — والجاهل الغمر فيها يرتقى الرتبا

وشوارع طرابلس متسعة يخترق اكثرهـــا المدينة طولا وعرضا من اولها الى آخرها على هيئة شطرنجية (1) فالمـــاشى يمشى بهـــا مشى الراخ خلالها وهى اشبه شىء عندنا بمدينة رباط الفتح بالمغرب فى زيهـــا وبنائها . (لطيفة) قال ابو عبد الله المعـــروف بابن المصـــرى صاحـــب شرح (2) الشقراطسية : واطرابلس باء مضمومة ولام مضمومة وآخره سين

---

(1) يعني ان المدينة مقسمة تقسيما هندسيا محكما على الطول والعرض ولا يوجد بها شارع يتجه بانحراف ، لقد كان سوق الترك بني منذ ثمان سنوات ... ولا تفوت الاشارة الى ان الوزير الاسحاقي كان على معرفة بلعب السطرنج شانه فى ذلك شان كبار الشخصيات، وقد علمنا ان السفير ابن العربي سفير المغرب لبلاط العباسيين وبعده السفير ابن عثمان فى جزيرة صقلية كلاهما لعـب الشطرنـج وكان مبـرزا على منافسيـــه ... المقـري : نفح الطيب ابن فلبون : التذكار 271 .
المجلد 2 ص 237 ابن زيدان الاتحاف 15 ــ 320 ــ 326 .

(2) هذا الشارح هو الحافظ ابو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي المصري بن محمد ابن الشباط المتوفي سنة 681 ، وقد كان المشروح هو قصيدة ابى محمد الشيخ عبد الله بن الشيخ ابى زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي (سقراطس : قصر قديم مـن قصور قفصة) وللشقراطسي هذا لامية فى السيرة والتاريخ ، وشرح ابن الشباط هذا (صلة السمط وسمط المرط فى شرح السمط الندي فى الفخر المحمدي) يقع فى ثلاث مجلدات اولها مفقود وهو من نوادر المخطوطات التي عرضت بمناسبة عيد مرور احد عشر قرنا على تأسيس جامعة القرويين ، وقد كمل نسخة بتاريخ 12 ربيع الثاني عام 715 بمدينة توزر ، وهو مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 110 ق وقـد اخبر العبدري فى رحلته انه درس هذه اللامية الفريدة على النفزي الذي حدثه بها عن شيخه محمد بن علي بن محمد التوزري الشهير بالمصري عن شيخـه الى ان يصـل السند الى ناظمها الشقراطسي المتوفي بتاريخ 3 ربيع الاول 466 وكما استوقفـت هذه القصيدة الامام العبدري فانها اثارت انتباه ابي القاسم العميري المكناسي الذي رحل عام 1143 لاداء فريضة الحج : انه وجد شرح الشقراطسية فى طرابلس واختصره فى كتاب له اسماه (الورد الندى ..) ويوجد بالمكتبة الزيدانية التي تولتـه الـى المكتبة الملكية بالرباط . رحلة العيدري : تحقيق وتقديم محمد الفاسي ص 44 ــ 45ــ 50 ابن زيدان : الاتحاف 5 ، 176 ــ 545 ــ الناصري احمد الرحلة ص 59 .

مهملة ، ويقال فيه طرابلس ايضا ، فاما قول ابى الطيب : (وقصرت كل مصر عن طرابلس (1) فانها مدينة بالشام انتهى .

ذكر خروجنا من طرابلس

خرجنا من طرابلس يوم السبت الثامن من شهر رمضان المعظم من السنة ونزلنا بقرية تاجورى (2) ، وهي قرية كبيرة قديمة بها جامع للخطبة (3) وحولها نخيل كثير ينزلها الركب مشرقا ومغربا ، وكان ابتداء عمارة هذه القرية عام خمسين وخمسمائة واهلها يدعون انهم من العرب من تميم ، ويذكرون انهم سكنوا الارض المعروفة بأرض

---

(1) صدر البيت : (اكارم حسد الارض السماء بهم ...) وقد سلف التعليق على ضبط كلمة طرابلس ...

(2) كانت تاجورة مركز حكومة خير الدين باربروس التركي .. المعجم ص 75 – 76 .

(3) جامع الخطبة بتاجوراء أبرز معلمة تاريخية تستلفت النظر من الذين يزورون مدينة تاجوراء الى اليوم وهو يستحق ذلك فعلا نظرا لضخامته ونظرا للتصميم الذي يختص به من دون سائر المساجد التي رأيناها فى العالم الاسلامي فهو فى وقت واحد مسجد للصلاة ، وقلعة محصنة للجهاد ، فانت تلاحظ فى جانبه الأعلى ممرات تشرف من نوافذ هناك على ما حوالي المدينة ، وهو من تاسيس مراد آغا الذي جلب له الاعمدة الثمان والاربعين من مدينة لبدة الاثرية ، وقد ساعده على بنائه الاسرى الذين صحبهم معه . ويوجد قبر مراد اغا على حدة قريبا من المسجد ، وقد نقشت على القبر العبارات التالية : « هذا ضريح المغفور له مراد اغا الذي تولى ولاية طرابلس الغرب فى الفترة ما بين 1551 – 1553 م 957 – 960 هـ ، وهو الذي شيد الجامع الكبير ، والمدرسة القرءانية بتاجوراء التي توفي بها حوالي سنة 1555 م 962 هـ تغمده الله برحمته ». هذا وقد أسدت المدرسة التاجورية للأسلام معروفا لا ينسى فلولاها لانقطع العلم فى البلاد . ومراد هذا يعتبر أول أمراء العثمانيين بهذه الديار ، واصله مسيحي من مواليد زاكورة بصقلية ثم أسر من قبل قراصنة العثمانين فى ايام طفولته ونقل الى اسطانبول وهناك اعتنق الاسلام ، وكان مولاه هو سليمان احد الاشخاص المقربين الى السلطان سليم الاول . ولا شك ان الركب الاميري مر كما هي عادة سائر الحجاج – على محلة الهنشير حيث توجد روضة الشيخ الجليل القدر السيد محمد الصيد (الكبير) ومعه ولده سيدي عبد الحفيظ الذي عقب اربعة اولاد : حامد وعلي وأبا حفص وسعيد ... ومن المعروف ان الصيد اخذ عن مشايخ اخذوا بدورهم عن ابي عمر المراكشي . ولم يذكر الاسحاقي شيئا عن زيارته فى تاجوراء لضريح الشيخ الحطاب الكبير الذي يعتبر بالنسبة الينا نحن المغاربة – احد اساطين الفقه المالكي ، وقد توفي سنة 954 هـ 1547 م . ابن غلبون – التذكار ، نشر الزاوي ص 123 . الاشارات تاليف سيدي الاسمر ونشر رافائيل رابيكس ص 26 – 27 .

P. Costanza Bergna O.F.M. missianario francecano (Tripoli Dal 1510 AL 1850) page (50-51) (1924).

(عرب هذا الكتاب الزميل الاستاذ خليفة التليسي ...)

(عبدرب) (1) من حين الفتح الاسلامي ثم انتقلوا الى هذه القرية ، والى تاجورا هذه ينسب الفقيه الحافظ ابو العباس احمد بن عبد السلام الاموى التاجورى توفى بطرابلس يوم الاربعاء السابع والعشرين من شوال عام ثمانية وسبعمائة (2)، وينسب الى تاجورا هذه ايضا الشريف ابو عبد الله محمد ابن عبيد الله الحسينى التاجورى يعرف فى المغرب بالتاجورى وفى المشرق بالخليل ذكر ان اباه خرج من الكوفة وهو ابن سبع سنوات فدخل به الى المغرب وربى فى مراكش ثم انتقل الى تاجورا فسكنها ثم الى المشرق وكانت وفاته بدمشق فى سنة اثنين وخمسين وستمائة (3) ، وسافرنا من تاجورا وعلى الله قصد السبيل ، فنزلنا المسيل ويقال له وادي الرمل (4) ، وهو واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه فى شتاء ولا صيف ومبداه من الجبل قاطعا الى البحر لا بد لكل مشرق يجعل الجبل يمنته او مغرب يجعله يسرته ، واصل مائه من عيون تنبع فى اثنائه تبدا من مسافة قريبة من الجبل فتجرى قليلا ثم تنقطع ثم تبتدىء بعدها عيون اخرى فينتهى ماؤها الى البحر ولا يعم الماء جميع الوادي الا فى وقت الامطار عند نزول السيول من الجبل (5) ، وكان فى أعاليه عند سفح الجبل قصر يعرف بصيفان بكسر الصاد المهملة

---

(1) (عبد رب) هكذا كتبها الاسحاقي ، وكذلك تقرا ... المعجم ص 75 .

(2) لم اقف على معلومات زائدة حول ترجمة ابى العباس هذا .

(3) المعلومات الخاصة بالشريف التاجوري نقلها الاسحاقي عن التيجاني ايضا الذي نقلها بدوره عن ابن سعيد الغرناطي من كتابه كنوز المطالب ، وقد الفت نظر الاسحاقي دون شك هذا السيد الذي خرج ابوه من الكوفة بالعراق وربى فى مدينة مراكش من المغرب ليعود الى تاجوراء فى ليبيا ثم تدركه المنية فى دمشق الشام ...

(4) وادي الرمل من ترهونة مصبه من الشرشار الشهير وهو الحد الاداري اليوم بين مديرية تاجوراء ومديرية القرة بولي ، وهو غير وادي المسيد الذي مصبه من مرتفعات مسلاته المشهورة . ويلاحظ ان طريق الحجاج القديمة اخذت الان فى الاختفاء لان الحكومة اليوم جادة فى تزويد البلاد بشبكة طرق عصرية واضحة المعالم وقد شاهدت العمل على نصب جسر ضخم على وادي الرمل ، هذا وقد جاء فى ديوان دمبل فى قصيدته التي يذكر فيها مناقب اليمن وفضائلهم بيت شعر يشير الى وادي الرمل فى المغرب وهو قوله :

وفى صنم المغارب فوق رمل   تسيل تلوله سيل السفينا

رحلة الناصري 1 د 76 ـ 77 . معجم القبائل ص 342 ـ 343 .

(5) التيجاني ص 210 .

يليها ياء مسكنة ثم باء مفردة (1) ، وفى قرب هذا المنزل بنحو مسافة يسيرة (قبر) يعرف هذا الموضع به ثم صار القبر اسما علما له وهو لرجل من العرب ، ثم من ذباب ثم من بنى عيسى منهم ، واسمه شهوان (2) بن عيسى بن عامر ابن جابر بن فايد بن رافع بن ذباب ، وكان هذا الرجل ذا رياسة فى قومه وصيت بعيد واشتهر بالكرم فلم يذكر معه فى وقته غيره وفيه يقول شاعر العرب :

حمى الارض شهوان بن عيسى بن عامر
وعرض الفتى ان ضيع المجد تالف

والاعراب الآن اذا نزلوا هنالك ولم يكن لهم زاد قاموا على قبره فنادوه يا شهوان بن عيسى « اقرا ضيافك » فيذكرون انهم لم يبيتوا قط دون عشاء اما بصيد ينساح لهم او بضالة يلقونها او بغير ذلك ، وهذا امر مشابه لما يذكره المؤرخون عن حاتم الطائى انهم كانوا ينزلون بقبره فيقريهم وفى ذلك يقول الشاعر يمدح عدى بن حاتم :

ابوك اب سفانة (3) الخير لم يزل لدن شب حتى شاب فى الخير راغبا
قرى قبره الاضياف اذ نزلوا به ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

وحكى ابو عبيدة قال نزل ابو الخيرى فى نفر من قومه بقبر حاتم فجعل يناديه يا ابا عدى اقرا ضيافك فقال له قوم : فكيف تنادى رمة بالية ؟ فقال : ان طيئا تزعم انه لا ينزل به احد الا قراه ، فاتتبه الخيرى مذعورا ينادى : واراحلتاه ! فاستفهمه اصحابه عن امره ، فقال خرج حاتم من قبره بالسيف وانا انظر حتى نحر راحلتى فنظروا الى راحلته تتشحط فى دمائها ، فقالوا له : قد — والله — قراك ! واخذوا يأكلون من لحمها ما شاؤا ، ثم ارتحلوا صباحا فنظروا الى راكب يقود بعيرا وهو يسئل عن ابى الخيرى فتعرض له ابو الخيرى ،

---

(1) كل المعلومات مستقاة من التيجاني ولكن بتصرف ، هذا والقصر المعروف بالجبل كان مغمورا حينما مر به التيجاني ونظرا لاختفاء معالم هذا القصر اليوم فقد تعذر علينا تحقيق الامر فيه .

(2) المعلومات من التيجاني ايضا وقد نقل صاحب كتاب اعلام ليبيا ان شهوان صار علما على ذلك المكان [6] وقد وقفت فعلا على مكان يقع شرقي طرابلس على ربوة يحمل اسم سيدي شهوان على بعد 55 كيلومتر تقريبا .

(3) السفانة : اللؤلؤة ... اعلام ليبيا ص 135 .

فقال : انا عدى بن حاتم وان حاتما اتاني الليلة فذكر انك استقربته وهو ينشدك :

ابا الخيبرى وانت امرؤ | لؤوم العشيرة ظلامها
اتيت بصحبك تبغى القرى | لدى حفرة صدحت هامها
اتبغى لى الذم عند المبيت | وحولى طى وانعامها
وانا لنشبع اضيافنا | ونأتى المطى ونعتامها

وقد امرني ان احملك على بعيري مكان راحلتك فدونكه (1) . وذكر بعض (2) من اجتاز بهذه البلاد من الراحلين الى المشرق وقبل هذا الأوان انه رأى بها الشجر المعروف بالعشار (3) وهو شجر طر ناعم النبات شديد الخضرة الى سواد ما وهو ينبت صغيرا ، وله اوراق

---

(1) كل هذه المقاطع ماخوذة من الرحالة التيجاني ، وقد نقلها كذلك عدد من الرحالة من الذين وردوا بعده .

(2) يقصد بهذا البعض العلامة ابن البيطار فيما يبدو لي واو انه ـ اي الاسحاقي ـ نقل كل هذه المقاطع من التيجاني ، والعبارة فى التيجاني على هذا النحو : وهو شجر ناعم النبات شديد الخضرة يضرب الى سواد ما ، وهو ينبت صغيرا .

(3) ورد فى كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم لابن الحشاء ان العشر شجر غير معروف بالمغرب الا ان بأرض برقة القليل منه وهو بطرابلس كذلك ، وبالمشرق كثير لكنني وقفت فى كتاب تحفة الاحباب فى ماهية النبات والاعشاب على انه اى العشر شجر موجود بدرعة ويسمونه بالبربرية (Kurunk) ويقال له ايضا تورزا (Tawarza) انظر المفرد رقم 313 ص (32) و (138) وكأني بالناصري ابن عبد السلام يرد على ابى الحشا عندما يقول فى رحلته : « وما اكثر شجر العشار فى بلادنا درعة وسجلماسة وما والاهما ... قال : وهو الذي يدعي بالبربرية الاكرنك ، ويقال لما يخرج من ثمرها من شبه القطن بالبربرية كذلك ترزو (كذا) واضاف الناصري : وكان هذه الشجرة غير موجودة فى بلاد الروم والا لما اهملوا استخراج صنعة غريبة من صوفها .. » وفى حديث اذاعي من راديو طرابلس حول ابن البيطار سمعت ان العشر يحمل فى ليبيا اسم بنخ ، وفى لسان العرب لابن منظور قاضي طرابلس الخرفع هو ثمر العشر له قشرة صغيرة اذا شقت ظهر منها مثل القطن ، وقال ابن منظور عن العشر انه شجر فيه حراق مثل القطن يقتدح به . وقال : انه من كبار الشجر وله صمغ حلو ، عريض الورق ينبت صعدا فى السماء وله سكر يخرج من شعبه ومواضع زهره يقال له سكر العشر وفى سكره شيء من المرارة ، وقد اعطاه دوزي اسم (Asclepias gigantea) قال ومنه تصنع البادية الفتائل ، ولذلك يسمى حراق الاعراب .
الناصري : الرحلة : مخطوط مصور بالمكتبة العامة رقم 1658 ص 116 مفيد العلوم ومبيد العلوم لابن الحشاء نشر وتصحيح كولان ورونو عام 1941 بالرباط . تحفة الاحباب فى ما فيه النبات والاعشاب مطبوعات معهد العلوم المغربية الجزء 24 المفرد رقم 313 ص 32 ـ 138 انظر مادة « وادي العشار » فى معجم الزاوي ص 345 .

عظيمة ونوار مشرق حسن المنظر كنوار الدفلى وثمرا خضر كالاترج تملأ الواحدة يد حاملها وهى مملوءة بشىء يشبهه القطن تسميه العرب الخرفع بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الفاء ربما حشيت به المرافق والوسائد وربما صنعت منه ثياب ، خبر بذلك من رآها ، وانشد ابو حنيفة قول الشاعر وشبه به لغام ناقته :

يضحى على خطمها من فرطها زبد كأن بالرأس منه خرفعا قذفا

ولذى الرمة فى مثله :

تطير اللغام الهيبان كأنه جنى عشر تنفيه أشداقها الهدل

الهيبان : الخفيف المتناثر ، وعود العشار خوار ضعيف أجوف مستوو ولذلك تشبه به العرب سوق النساء وادرعهن قال طرفة .

كان البرين والدماليج علقت على عشر أو خروع لم يخضد

البرين الخلاخل واحدتها برة ، وقال ذو الرمة فى مثله .

كان البرى والعاج هيجت متونه على عشرنهم به السيل ابطح

والعشر لا يأكله حيوان ، وفى ذلك وفى خضورته ونعومة نباته قال عوف :

هلا فوارس رحرحان هجرتم عشرا تناوح فى سرارة الوادى
لا تأكل الابل الغرات نباته وعماده لا تنتحى لعماد

تناوح اى تتقابل ، وسرارة الوادى وسطه ، وهو شجر كثير الميوع وليس شىء من النبات على اختلافه اكثر لينا منه ، ويجنى منه المغافير واحدها مغفور بالضم وهو صمغ حلو كريه الرائحة يقال له سكر العشر ، وفى الحديث (أكلت مغافير) وهو من هذا ، ولا تكون المغافير الا فيه وفى العرفط والرمث والثمام ، والثمام اكثرها مغافير ، وليس فى كلام العرب مفعول بضم الميم الا مغفور هذا ومغرود بالغين المعجمين لضرب من الكماة ، ومنخور لغة فى المنخر ، ومنابت العشر

القيعان وبطون الاودية ، وقد ينبت بالرمل ، قال ابن البيطار (1) فى ادويته : ولم أر شيئا منه فى بلاد الاندلس ، واول ما وقفت عليه بظاهر طرابلس الغرب بالجهة الشرقية منها ثم قال بعد ذلك رايته بديار مصر بظاهر القاهرة انتهى كلامه . وكانت العرب تستجلب المطر اذا احتبس عنها بشجر العشر هذا وذلك ضرب من السحر يعمدون الى شجر للعشر وشجر السلع بفتح السين واللام فيأخذون منها اغصانا يجعلونها فى اذناب البقر ويشعلون النار فيها ثم يصعدونها الى الجبل فيزعمون انهم يمطرون من وقتهم ، وقد أشار الى ذلك امية بن ابى الصلت فى قوله :

سنة ازمة تخيل بالنا ... س ترى العضاه منها صريرا
لا على كوكب ينوء ولا ريـ ... ـح جنوب ولا ترى طخرورا
ويسوقون باقر السهل للطو ... د مهازيل اوشكت ان تبورا
عاقدين النيران فى ثكى الاذنا ... ب منها لكى تهيج البحورا
سلعا ما ومثله عشرا ما ... عائلا ما وعالت البيقورا

تخيل بالناس أى تطمعهم فى المطر والطخرور القطعة من السحاب بالخاء المعجمة وبالحاء المهملة ، والبيقور جماعة البقر وقال الشاعر يعيب عليهم بعملهم هذا .

لا در در رجال خاب سعيهم ... يستجلبون نزول الغيث بالعشر
أجاهل أنت بيقورا مسلعة ... وسيلة لك بين الله والمطر ؟

ومن هذه المرحلة التى ظللنا نسير منها مع البحر ونزلت علينا فيها امطار غزيرة ، نزلنا على النقيزة (2) ، ومررنا على ساحل

---

(1) هو عبد الله المالقي عرف باب البيطار ، ولد فى مالقة وتعلم الطب ورحل كما ترى فى بلاد افريقية كما انه رحل الى بلاد الاغريق وبلاد الروم ، ونال فى مصر وظيفة رئس المشابين على عهد الكامل الايوبي ثم الملك الصالح وهو صاحب كتاب الادوية المفردة (مطبوع) وله كتاب المغنى فى الادوية المفردة (خ) وميزان الطب (خ) توفي بدمشق سنة 646 والمعلومات المذكورة كلها مقتضبة من التيجاني ...

(2) النقيزة او النقازة بالزاي رؤوس جبال كثيرة متقاربة والطريق فى مرتفعات النقيزة ذات منعرجات متصاعدة مخطرة ينبهك اليها بعض اللافتات التي انتصبت هنا وهناك وقد كتب عليها بالانجليزية ما ترجمته : يا ابي لا تسرع ا نحن فى انتظارك ... وبقطع هذه المرتفعات تترك مسلاته وترهونه عن يمينك . المعجم ص 330 .

حامد (1) بلاد ذات نخل كثير ومزارع كثيرة وبطرفها من ناحيـــة الغـــرب على ساحل البحر مدينة لبدة (2) واذا هي مدينة كبيرة قديمة خربة من بناء الاوائل بها اثر بنيان هائل ورخام كثير تقابلها مدينة اخرى مثلها حجز بينهما نهر متسع فيه الآن ماء قليل ، في بعض رخامها تصاوير عجيبـــة سفت عليا الرمال وغطت على ما كان بها من الحسن والجمال (لطيفة) لما مررنا بهذه المدينة وجدنا بها شيخا كبيرا فسأله بعض اصحابنا الطلبة عن المدينة المذكورة لعله يوجد عنده شيء من خبرها فقال انها مذكورة في كتاب الله ، قال الله تعالى أهلكت مالا لبـــدا ، فضحك الطلبـــة حتى مال بعضهم على بعض ، وبينما نحن معه في ذلك الهذيان اذ جـــاء بعض اصحابنا فقال من هذا الرجل فقيل لـــه : من اهل البلد فقال لـــه أتقـــرأ شيئا من القرآن فأجابه الفقيه السيد احمد المكودى فقال له نعم يقـــرأ من القرآن اهلكت مالا لبدا (3) ، ومن هذه الدار نزلنـــا الدفنيـــة (4) ،

---

(1) ساحل حامد او الاحامد لا يبعد عن المدينة التي تحمل اليوم اسم مدينـة الخمس الا قليلا ، والعجيب ان (الخمس) كانها غير معروفة لدى الحجاج ، وقد سمعـت انهـا سميت كذلك لان فيها كان يؤدى الخمس من زيتون جبال مسلاته ... المعجم 120 .

(2) هذا هو المكان الذي الفت انظار جل الرحالة المغاربة فسجلوا عنه في مذكراتهم اجمل الاوصاف ، ولبدة هذه هي احد المدن الثلاث التي تعبر عنها كلمة طرابلس كما سبقت الاشارة اليه ، وتقع في مصب نهر لبدة شرقي الخمس على بعد نحو ثلاث كيلومترات ، وهي من اهم المدن التي اسسها التجار الفينيقيون ، ومن بين ما قرأته في معناها انه مشتق من اسم القبيلة المشهورة (اواتة) المحرف الى لباتة ، والابدال بين الـواو والباء والميم مالوف في اللغات السامية . وذهب بعض الى ان اسم لبدة مشتق من نفس الاصل الذي اشتق منه اسم القبيلة الليبية القديمة (ليبو) الوارد في المصادر الهيروغليفية والذي سمي به القطر الليبي جميعه ، وقد ازدهرت المدينة عند حكـم الامبراطور سيبتموس سيفروس (Septimus severus) الـذي ولـد فيهـا وصار امبراطورا سنة 193 وهو الذي زود المدينة بالماء والقنوات وبنى سدا على النهر الذي يخترق المدينة ... ومن دون شك فقد شاهد الاسحاقي قـوس الامبراطـور سيبتموس سوروس ، وقوس الامبراطور تراجان وشارع الاعمدة ... المعجم 295 .

(3) اعتاد بعد الذين يكتفون من الكتاب المقدس بالحفظ المجرد ان يستشهدوا بآيات قد لا تمت بصلة للمعاني المقصودة ، سمعت من بعضهم في المغرب كنا عهدنا اليه باقتناء بضاعة من السوق واتفق انه وجد تلك البضاعة قد نفذت فرجع يقـول متمثلا بالآيـة الشريفة : « مسحا بالسوق ! » مع ان السوق في الآية جمع ساق !! ، ونعتقد ان من هذا القبيل محاولة جعل « لبدا » في الآية الشريفة اشارة لمدينة لبدة ...

(4) الدفنية على بعد نحو ثلاث كيلومتر من مدينة مصراته ، وقد كان ((الطلاينة)) اطلقوا عليها اسم كاريبلادي (Garibaldi) باسم رئيس وزراء ايطاليا وهي منطقة زراعية بها عنب ولوز وزيتون كثير . الزاوي : المعجم 133 .

وارتحلنا من الغد فاصبحنا على مصراته (1) مدفن الصالح الشهير شيخ الطريقة الجامع بين الشريعة والحقيقة أبى العباس سيدى أحمد زروق (2) نفع الله به آمين فثنينا العنان لجنابه ، وحططنا رحال الامنية ببابه ، وشكى كل واحد مناله ما به ، وكنت انا اشتكي بوجع الركبتين وهو شيء يعاودني منذ أعوام واقاسي منه شدة وصحبني هذا الوجع من خروجنا من فاس ولم يزل بي حتى استاجرت منه بهذا السيد المبارك وشكوته اليه فاشكاني . ومن ذلك الوقت رفعه الله عني الى الآن وانى لارجو الله تعالى ان يعافيني منه ومن غيره فيما بقى من عمرى آمين ، وزارت السيدة المباركة أم سيدنا نصره الله ضريح الشيخ المذكور وتبركت به وتصدقت على اهل الزاوية والفقراء والمساكين بما يتقبله الله منها بمحض فضله وكرمه . وفى رحلة العلامة أبى سالم سيدى عبد الله أعياش رحمه الله بعد ما ذكر عدة ورثة الشيخ احمد زروق المذكور من زوجاته وأولاده ما نصه : وكان من مختلف الشيخ احمد المذكور نصف الفرس الشهباء كبيرة السن شركة بينه وبين الحاج عبد الله بن عزازة التكيراني (3) المسراتي بالنصف الثاني مع برنوس أبيض وجبة صوف بزن مختم مع ثوب بالغزل وسبحة شعل كن أخذها الشيخ احمد المذكور من الشيخ سيدى احمد بن عقبة الحضرمى اليمنى نفعنا الله به آمين ، مع اربعة عشر سفرا وكناش ثم سمى الكتب . ذكر أبو

---

(1) مدينة شهيرة عرف اهلها بالنشاط والجد والمثابرة ... ولا تكاد تجد مرفقا من المرافق الحيوية دون ان تجد للمصراتيين يدا فيه ، وقد عرفوا من لدن الحجاج المغاربة القدامى بذكر طيب جميل .. ولاهميتها نجد لها عدة موانىء غربية وشرقية ، وهذه ثلاثة قصر : حمد – بوشعيفة – العرعار . ولعل بعض الموانىء الشرقية هي التي ورد ذكرها فى رحلة الامام العبدري ... ويغلب على الذين اختاروا مصراتة مقرا لهم التمسك باوراد الشيخ زروق سيد البلاد . المعجم ص 316 – 317 .

(2) هذا الشيخ زروق مفخرة المغرب والمشرق وهو فاسي برنوسي ، وقد ظل مقصد الحجاج على اختلاف طبقاتهم كلما مروا بهذه الديار ، وقد ترجم له غيروا جد وحضرت فيه الاطروحات .. ويوجد بمدينة فاس مسجد ينسب اليه فى باب درب بوحاج الاسفل يجاوره مكتب قرآني فى حومة الطالعة . التازي : تاريخ جامع القرويين المجلد 3 ، ص 683 – 692 .

(3) نسبة الى تكيران فى ظاهر مصراته وبها مرفا . راجع مادة بوشعيفة فى المعجم ص 272.

سالم انه وجد زمام تركته عند الفقيه السيد على بن عزازة وجده كان من اصحاب الشيخ . فانظر تمام ذلك فى الرحلة المذكورة (1)

(لطيفة) وجدت بخط الفقيه الاديب سيدى محمد بن محمد المرابط (2) الدلاىء ما معناه انه حج فى بعض السنين فى جملة ركب الحاج فأصابه الم ورم فى فخده اشتد به وجعه وتصلبه حتى كاد يقضى عليه وانه دخل به متطارحا على الشيخ المذكور افاض الله علينا من نفحاته وانشده :

---

(1) لقد ذكر ابو سالم العياشي لائحة لخزانة كتب الشيخ زروق وضمنها جزء يسير مما الله ضجيع مصراته ، وهكذا ذكر ان خزانته كانت تحتوي على بعض الكتب الفقهية كمختصر ابن عرفه الخ ... اما تأليف الشيخ فهي من خلال المصادر التي وقفت عليها سواء منها المخطوطة او المطبوعة مرتبة على الحروف : اصول الطريقة ، واعانة المتوجة المسكين على طريق الفتح والتمكين ، وانواع أهل الخصوصية ، وتعليق على البخاري والجامع المضاف .. ورسائل زروق .. وشرح الارشاد .. وشرح اسماء الله الحسنى .. وشرح حقائق المقري .. وشرح الحكم .. وشرح الرسالة .. وشرح العقيدة القدسية للغزالي .. وشرح الغافقية .. والشرح الصغير على الحزب الصغير .. وشرح القطبية .. وشرح قطع الششترى .. والشرح الكبير على الحزب الكبير المسمى حزب البحر للشاذلي .. وشرح المباحث الاصلية .. وشرح مواضع مختصر الشيخ خليل .. وشرح مشكلات الجزء الكبير .. وشرح المراصد فى التصوف .. وشرح الوغليسية .. وعدة المريد الصادق .. والعقيدة القدسية .. وكتاب القواعد فى التصوف .. والنصح الانفع والجنة للمعتصم من البدع والسنة .. والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية .. والمسائل المسماة تحفة المريدين .. ومنظومة فى عيوب النفس .
المنالي : الرحلة مخطوط الرحلة العياشية ص 91 – 92 – رحلة الناصري 92 . عبد السلام الناصري 169 – كنون عبد الله : مجلة كلية الآداب (بنغازي) 1968 .

(2) هو ابو عبد الله محمد بن ابي عبد الله محمد الملقب بالمرابط المتوفي سنة 1099 ترجمه غير واحد ، ولد بالزاوية البكرية ، وبها نشا وتعلم عن والده وجماعة من اقاربه، كان شيخا عالما فقها اديبا ناطقا ناشرا ، وهو الذي اشار اليه صاحب حدائق الازهار الندية بعد ذكر والده الملقب بالمرابط ، اشار اليه فقال :

وترك النجل الفقيه البارع   محمد الطود الشهير الجامع
كان اديبا لوذعيا حافظا   علامة دراكة ولافظا

وقد حج مع والده سنة 1079 له ديوان حافل بالشعر ، من ذلك تربيع البردة للامام البوصيري ، وله قصيدة فى التوسل ، يعرب فيها عن فرحته حيث اختار له من الاسماء ، (محمد) يقول فى مطلعها :

والله ما سميتني بمحمد   الا لترحمني بفضل محمد ...

البدور الضاوية (مخطوط) ص 278 – 449 . السلوة 2 – ص 92 – 93 .

يـــا أبـــا العبـــاس زروق فهـــل	مـــن شـفـــاء أو عـــلاج الضـــرر
فحماك الـــيـــوم يـمـــمـــت فـــان	تكشف البـلوى ففضل قد ظهـــر
أو تـسرد اليوم قلبـــي آيســـــا	فمتى ترجـــى لخطب قـــد بهـــر

قال : فوالذى نفسى بيده او كما اقسم ما برحت مكـــانى ولا خرجت من ضريح الشيخ حتى كانما أنفذ فيها باشفى فتفجرت قيحا وصديدا وخرج يمشي ما به قلبة (1) ، قلت ، ولا يستغرب مثل هذا فى كرامه الاوليـــاء واجارتهم لمن استجار بهم بنية وصدق (وهم القوم لا يشقى جليسهم) ، وقضينا وطرا من زيارة الشيخ رضى الله عنه ، مددنـــا اكف الضراعة اليه ، وعرضنا امنيتنا عليه بقلوب خواشع ، وعيون بـدموع هوامع ، ورقاب بالتذلل بين يديه خواضع ، خوانع بواخع ، يجـــد الانســـان فى نفسه فى ذلك المقام مهابة عظيمه ربنيه والناس يعتمدون زيارة الشيـــخ ويرونها أكيدة ، ولا سيما الحجاج فانهم يقـــولون ان من زاره واستودع عنده نفسه واهله ومتاعه ولا بد ان يرجـــع اليـــه من سفـــره ذلـــك ، وكنا نسرد صحيح الامـــام ابى عبد الله البخـــاري (2) مع جماعة مـــن اصحابنا الطلبة فوافق الزيارة ان كنا وقفنا فى السرد فى الايام قبله على باب الحج فقرأنا ابوابا من كتاب الحج بين يديه بل بيـــابه رضى اللـــه عنه ، وانا لنرجوا من فضل الله ان يثبت لنا السماع من الشيخ ، فقد قرأنا عليه وهو يسمع ، ولا موت — قالـــوا — للمحبين فى الرمـــس .
قلت : واما مر العبدري على مصراته قال فى حقها : وهذا بلد لم يحـــو الا جفاته وشأنه احقر من أن يعمل فيه الواصف مقوله وذاته ، على أنه ذو قرى ظاهرة ، ومناظـــر عند ظهورها باهـــرة ، تخيـــل الحسن اذا نظرت ، وتحيله اذا اعتبرت .

---

(1) القلبه : الداء الذي يقلب منه صاحبه على فراشه .

(2) نرى ان الركب الاميري يعني بالدروس الدينيه بالرغم من ان السفر قطعة من سقر كما يقولون ، ومن المعلوم ان صحيح الامام البخاري يحتل عند المغاربـة مركـزا عظيمـا وخاصة لدى الاسرة المالكة التي اطلقت اسمه على جيشها تيمنا بفضله وجاهه كمـا سلفت الاشارة الى ذلك ، وما تزال عادة الدروس الحديثية فى الاشهر الحرم وخاصة فى رمضان المعظم تقام لها المجالس الكبرى التي يراسها عاهل البلاد بمحضر السلك الدبلوماسي الاسلامي . التازي : نحو تاريخ هجري موحد ، دعوة الحق ـ دجنبر 1966ـ يناير 1967 صحيح الامام البخاري بخط الحافظ الصدفي .. دعوة الحق ـ مارس 1973

مساكن غصت بسكانها · ولكن تراهن كالمغامر
يظن بها الحسن ذو غرة   وما حسن دار بلا عامر

والعبدرى كانت رحلته من حاحا من بلاد السوس فى الخامس والعشرين من ذى القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة قبل ان يحل الشيخ زروق بمصراته بأزمان ولو مر بها والشيخ بها يمد أمداده دافقا به أسبابه وأوتاده ، لما جمل به ان يقول : (وما حسن دار بلا عامر) وأى عامر اعمر من عمارة الشيخ زروق ؟ وحق لبلد تبوأها حيا وضمت اعضاءه المباركة ميتا ان تزهو على البلاد ، وتسامى ارم ذات العماد ، ولو استقبل العبدرى من امره ما استدبر ، لأناب الى الله من مقالته تلك واستغفر ، ونسب الذنب فى ذلك الى القلم الذي سبقه وما شعر (1) . ومصراته اليوم عامرة عمارة مليحة وبها نخيل كثير ومزارع واسعة ، وبها جامع تصلى فيها الجمعة (2) قريبا من زاوية الشيخ نفع الله به ، والزاوية عليها أوقاف من نخيل وفدادين مع ما يجانب لضريح الشيخ من الهدايا والصدقات وعلى الزاوية قيم يخدم الزاوية ويطعم من ينتابها من الاضياف والواردين ، ونزل الركب خارج النخيل من ناحية الشرق بالموضع المسمى ـ بوشعيفة (3) ـ وأقمنا به يوما وعمرت فيه سوق كبيرة جلب اليها كثير من المبيعات ، ثم أسرينا من هذه الدار وصلينا الصبح فى الطريق بعد ما سرنا مسافات متعددة مررنا عنها

---

(1) لاول مرة نرى فيها الاسحاقي ينتقد صديقه العبدري فيما ذهب اليه من نقد بعض البقاع ومع ان العهد فيه دائما متابعته بل احيانا زيادة اضافات من عنده لكنه فى مصراته ابى الا ان يخالفه .

(2) هذا المسجد يحمل اليوم اسم الجامع العالي ، وما يزال على طابعه القديم الذي يضفي عليه بهاء جميلا ، وهو لا يبعد عن ضريح الشيخ زروق الا بخطوات وتصلى فيه الجمعة لحد الان وبه كان يعطي الشيخ دروسه .

(3) ورد فى النسخة المخطوطة (بوشعيب) وهو تحريف لابو شعيفة اسم ولي بمصراته مدفون على تل مرتفع بساحل البحر على مقربة من قصر احمد وبه سمي المكان ، وقد ورد ذكر ابو شعيفة عند العياشي والناصري . المعجم ص 16 .

ومرت (1) ، فنزلنا على (سرت) البرية الردية ، وذيك (2) معدن كل ردية ، ذات المياه التى تحل قوى الاجسام ، وتثير كامن الاستفهام ، وتنفذ كما تنفذ السهام ، وبعد طول التعنى بهذا المهمه ، الذى ينشد لسان حاله المفوه :

لـي اسم ولكن لا مسمى وراءه فلا تغترر ان كنت ذا فطنة باسمى
فكم طار فى الآفاق صيت مشهر لمن ماله فى صالح الفعل من قسم

وهذا الاسم يطلق على عدة قصور بينها مسافة : اولها يسمى السبيخة (3) وآخرها يسمى المدينة (4) ، واكثر ما يطلق سرت عليها ، وحكمها كلها حكم القفار التى ليس بها داع ولا مجيب وقد ذكر الامام البكرى فى مسالكه : أن سرت مدينة كبيرة على ساحل البحر لها نخيل وبساتين

---

(1) نلاحظ الاسحاقي اخذ يعتمد بصفة رئيسية على الرحالة العبدري الذي يستمد من البكري ... بعد ان كان معتمده الاول هو الرحالة التيجاني . لقد اضطر التيجاني فعلا الى العودة لبلاده على اثر مرض الم به وهو بمسلاته على مقربة من ضريح العلامة الفرضي ابن المنمر ... وهكذا نرى الاسحاقي يختفي وراء هذه المسافات المتعددة التي مرت به ومرعنها ... ومعلوم أن بين ابو شعيفة وسرت نحوا من ست مراحل ، ولقد اقتصر نقله على الافادة بان سرت تعني قصورا عديدة اولها السبيخة وآخرها المدينة .. ويلاحظ ان العياشي والناصري هنا كانا اكثر ضبطا ودقة من الاسحاقي..

(2) (وذيك) هكذا اسم اشارة أي وتلك معدن كل ردية .. وهي التي حرفت عند العبدري بزديك فى شعره :

قالو : تعيد فى فاس فطب فرحا فقلت مالي بها دار ولا عطن
فاس ومكناسة وطنجة وسلا عندي كذيك لا اهل ولا وطن
بغداد قفر اذا لم تحولي سكنا والقفر بغداد ان اهلي به قطنوا !

وفى نظمه كذلك :

وفى مسراته سهت جفوني لما ابدت من النصح الجلي
وفى ذيك مسقط كل قفر بيان بالخطاب المعنوي

العبدري : الرحلة المغربية تحقيق وتقديم م. الفاسي ص (ث) 85 - 282 . ابن عبد السلام الناصري ص 171 . وقد اهملها الزاوي فى معجمه ؟

(3) الرسم عند الاسحاقي وعند العبدري (الشبيكة) ونظن ان الاصل هو (الشبيخة) اعتمادا على ما ورد فى وثائق اكوستيني (Agostini) ، هي سبخة تاورغة التي تعتبر بالفعل بداية منطقة سرت وضمن المنطقة تقع المدينة التي تحمل اسم (سرت) المعجم 181 .

(4) المدينة بالتصغير فى الجنوب الغربي من مدينة (سلطان) التي ورد ذكرها عند العياشي وغيره ، وهي مدينة أثرية تستعد هذه الايام لبعض الحفريات وهي على شاطىء البحر ، على بعد نحو من خمسة وخمسين كيلومترا شرقي مدينة سرت .

وذكر نحو ذلك فى (اجدابيه) وبينهما عشر مراحل ، قال العبدرى ولا وجود لشىء مما ذكر ، الا أن يكون مما غبر ودثر ، واظنه سمع بوجود التمر فيها فظن ان بها نخلا والتمر اليها مجلوب وهو جل عيشهم بها ، ومما انشده البكرى فى سرت :

يا سرت لا سرت بك الا نفس ... لسان مدحى فيكم اخرس
البستم القبح فلا منظر يروق ... منكم لا ولا ملبس
بخستم فى كل اكرومة ... وفى فعال القبح لم تبخسوا (1)

ومن هذه الدار اسرينا واتصل مسيرنا الذى راق وازدان فكان المبيت بشرف حسان (2) ، فلاة فى ارض سرت هده ، ومنها نزلنا القبيبة (3) ، ومنها نزلنا العلندية (4) ومنها نزلنا اجمعون دون تخصيص بل على التعميم ، المعطن المسمى بالنعيم (5) نزلناه وقت الظهر فتروى

(1) هنا فقط انتهى نقله عن العبدري ممزوجا بما قاله البكري . والي سرت هذه ينتسب عدد من العلماء والفقهاء نذكر منهم ابا بكر عتيق بن القاسم السرتي الذي انشد الحافظ ابا الحسن علي بن المفضل المقدسي هذه الابيات التي مطلعها :

اقول لعيني دائما ولد معها ... لسان بسر الجد فى الخد ناطق

هذا ولو امد الله فى حياة البكري لآمن بان (سرت) اسم على مسمى ، وانها فعلا مجلبة للسرور ، فقدفجرالله فى اراضيها ثروة طائلة تصرفها البلاد فى مصالحها ومنافعها كما سلف ان اوضحنا ذلك ...
ياقوت : معجم البلدان 3 ـ 206 ـ النائب الانصاري : المنهل ص 119 ـ 120 .

(2) نلاحظ الاسحاقي عاد ليحاول تفصيل بعض المراحل التي تحتوي عليها منطقة سرت وشرف حسان او قصور حسان او ثمد حسان هي التي استحدثها حسان بن النعمان الغساني لما ذهب لفتح افريقية عام 77 هـ بناها بين سنة 80 ـ 84 ، واليها ينتسب الشيخ ابو عثمان الحساني المعروف بالمستجاب . ابن غلبون 219 ـ 220 ـ 221 . المعجم 278 ـ 279 .

(3) القبيبة تقع على بعد نحو من خمسة وثلاثين كيلومترا شرقي حسان وتعرف بوادي القبيبة وتوجد هنا عدة آبار وآثار لمباني قديمة ، ويعد القبيبة تاتي منطقة الزعفران ثم المدينة التي تحمل اسم سرت التي شعرنا فيها بسرور زائد بمجرد الدخول اليها.. ويمكن للزائر للمدينة ان يقف على مغارة قبالة متصرفية المدينة من عهد الرومان . المعجم ص 259 ـ 260 .

(4) العلانداية : تقع جنوب الشاطىء وهنا (مسلاة) قديمة ، وبعد العلانداية نصل الى (سلطان) التي تسميها العامة لحد الآن المدينة بالتصغير ... والحقيقة ان قطع هذه المناطق من الصعوبة بمكان ، لقد كنت اتصور جيدا مدى التضحية التي يتحملها الحجاج فى سبيل اداء واجبهم المقدس ، كان عليهم ان يقبلوا احد امرين اما ان يقطعوا هذه المسافات فى فصل الحر ليحجوا فى الشتاء واما ان ياخذوا هذه الطريق فى الشتاء ليصادفوا فصل الحر فى الحجاز .

(5) معطن النعيم ويقع على البحر بعيد وادي هراوة وياتي بعده وادي الاحمر . المعجم ص 329 ـ 333 .

الركب من مائه الفرات المعين ، ومنه اسرينا واعطينا السرى حقــــه الموجود ، فكان المبيت على وادي مسعود (1) ، ومنه اسرينـــا وكـــان المبيت في قصر عطيش (2) ، ومنه بعد تثبيت في السير وتثبيت ، نزلنا مقطع الكبريت (3) ومنه أسرينا قبل التصبيـــح فكـــان المبيـــت على (صبيح) (4) ، ومنه بتنا في (علم زغبة) (5) ، ومنها أسرينا على جهــد من السير جهيد ، فكان المبيت على (الجديد) (6) ، ومنهـــا جزنـــا على (اجدابية) ، وهي مدينة قديمة يقال انها بلد الامام سحنـــون ، ومنهـــا انتقل للقيروان ، وبها محراب يزار يقال انه صلى فيه الامام المذكور (7) . ومن غربي هذه المدينة ابتداء الحرقة ، وابلاء الخرقة ، بتـــروع الفـــلاة

---

(1) وادي مسعود أو مسعودة يبعد نسبيا عن معطن النعيم ولذلك نجد الركب الاميري يستعين بالسير في الليل ليصل اليه وتوجد عليه قنطرة صغيرة .

(2) يقع قصر عطيش بعيد عن قرية بن جواد لا يبعد عن ميناء لانوف الا ببضع كيلومترات وفي هذه المرحلة بلغنا امام القوس العظيم الذي شيده الطليان سنة 1929 ، والذي يعتبر في نظر كثير من الناس بداية ارض برقة ... ونذكر ان عهد الاستقلال نقش على اعلاه هذه الابيات التالية :

شـاد البغـاة بنـاء يبتغـون بـــه — تخليد روما وشاء الله ان يقعـــوا
ما شان روما بقوم اصلهـم عـــرب — دانو بما قال خير الخلق وانتفعوا !
هذي بلاد هدى الاســلام يحفظهـــا — و (الله اكبر) في الافاق ترتفـــع

الزاوي : المعجـــم ص 275 .

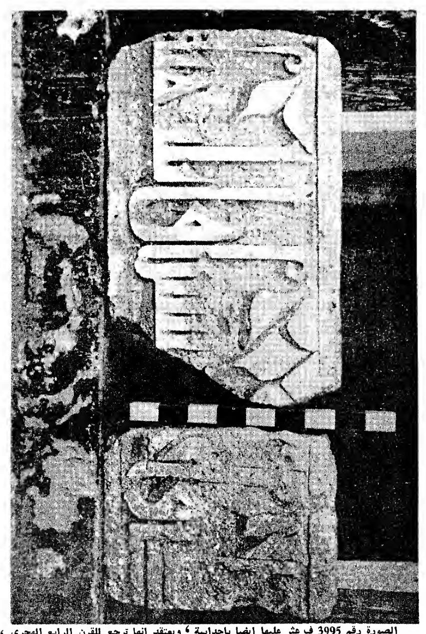
(3) بعد قصر عطيش يصل المرء الى مقطاع الكبريت ، طبعا بعد القوس وام الفرانيق ، ابن غلبون : التذكار ص 259 . المعجـم ص 56 .

(4) المكان يعرف بمقطع صبيحة ، ويوجد على يمين الطريق الحالية على مقربة من مرسى البركة . وقد اهمله المعجم .

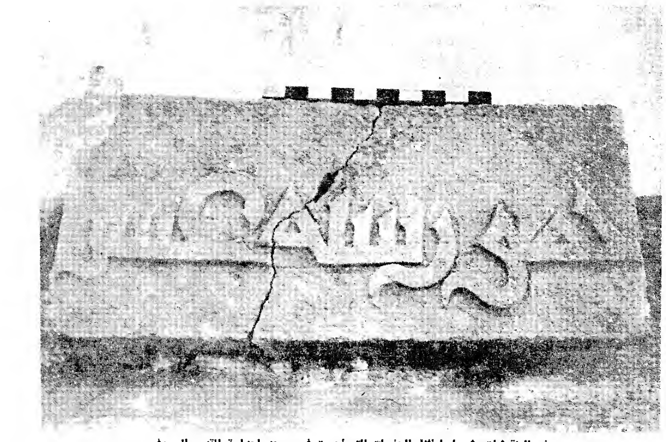
(5) علم زغبة او اكمة زغبة على بعد نحو من ثلاثة كيلومترات من الطريق المعبدة بعيدة عن اجدابية بزهاء 60 كيلومترا . وقد اهملها المعجم .

(6) يسمى بئر الحديد وهو يقـع عن يسار الطريـق الجديـــدة شمال قصر الحنيـــة ، المعجـــم ص 100 .

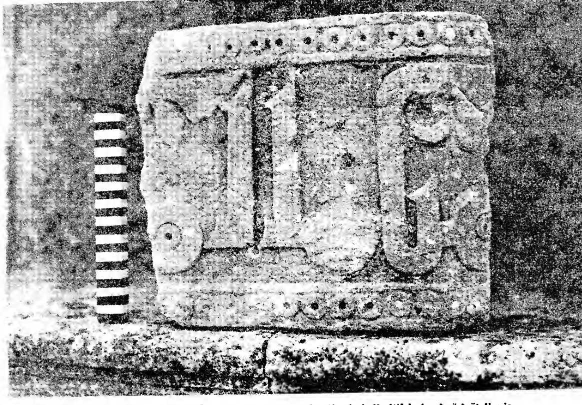
(7) بالاضافة الى التعريف الذي نقله الاسحاقي نشير هنا الى الاهمية البالغة التي يوليها رجال الآثار لهذه المدينة ذات التاريخ العريق وقد كان بها جامع بناه ابو القاسم بن عبيد الله المهدي القائم بامر الله سنة 300 على ما وجده العياشـي الذي نقـل ان سحنون ظل مدرسا في هذا الجامع ثلاث سنوات ، ومن جملة ما قرات من بحوث عن هذه المدينة التي قضيت فيها اوقاتا ممتعة ، بحث صدر في مجلة Libya Antiqua المجلد الاول 1963 للاستاذ عبد الحميد ابو سيد ... تعرض فيه للخطوط الكوفيـة القديمة التي اكتشفت هنا كما تعرض لقصر القلعة ... ولاجدابيا ينتسب العلامة ابو اسحاق ابراهيم الاجدابي ، وقـد تـردد ذكرهـا في التاريـخ القديـم والحديـث ، المعجـــم ص 20 ـ 21 .



الصورة رقم 3995 ف عثر عليها ايضا باجدابية ، ويعتقد انها ترجع للقرن الرابع الهجري ،
من اطلال المسجد الذي بني من قبل الخليفة ابي القاسم بن ابي عبد الله ، جامع سحنون ،
الصـورة تحمـــل فى الاثـار رقـــم 3997 ف .



هذه المنقوشات عثر عليها أثناء الحفريات التي أجريت فى مسجد اجدابية القديم المعروف بجامع سحنون ، (مصلحة الآثار برقة سجل الصور الشمسيـة تاريـخ 29 ـ 10 ـ 1956



هذه المنقوشة عثر عليها أثناء الحفريات التي أجريت بالقلعة باجدابية ، مصلحة الآثار برقة،
سجل الصور الشمسية بتاريخ 29 – 8 – 1963 رقم 4299 ف .

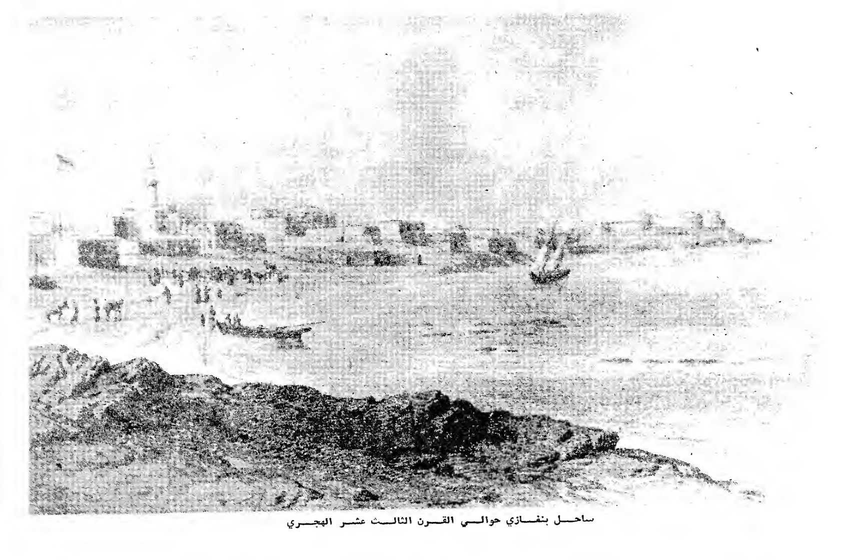
المهلكة ارض برقة ام البرارى ، والمومات المرمية بالاقلال من وصال الاسفار ، امتدت وطالت ، واشتدت وهالت ، وانشدت بلسان حالها وقالت :

انا الغول غالت من يدور فناءها … وتخدم بالالطاف طورا وبالبر
فان اكلوا بسرى شربت نفوسهم … وكم بين نفس المرء فى الغدر والبر

وبرقة مدينة قديمة من بناء الروم ، وكان اسمها عندهم انطابلس قال البكرى : ومعناها بلغة الروم خمس مدن ، ومعنى اطرابلس ثلاث مدن ، وليس الآن هنالك مدينة تسمى برقة ولا مدينة مذكورة الا طلميثة **وهي قديمة ولست أدري أهي برقة فغير اسمها ثانيا الى طلميثة (1)** كما غير اولا الى برقة أم هى غيرها ، وبرقة الآن اسم ارض لا اسم مدينة ، والمغاربة يسمون بها ما ردت (عين اقيان ؟) من غربي اجدابية الى الاسكندرية وذلك نحو من أربعين مرحلة (2) انتهى ، ومن هذه

(1) سقط هذا السطر (وهي قديمة ولست ادري اهي برقة فغير اسمها ثانيا الى طلميثة) سقط هذا السطر من النسخة التي بين ايدينا وذلك يدل على ان هنالك نسخة اخرى ، منها حررت هذه الموجودة بخزانة القرويين الكبرى . وطلميثة محرفة عن المدينة القديمة بطوليمايس القديمة التي اسست فى القرن السادس قبل الميلاد ، ومن اثرها المدافن البطلمية والصهريج العظيم والمسرح الروماني ...

(2) لقد اولع المغاربة كثيرا وخاصة منهم الحجاج بالحديث عن (برقة) يتصورونها (غولا) كما قال الشاعر ، منطقة محفوفة بالمصاعب والمخاطر حتى لقد قال فقهاء المغرب والاندلس بسقوط الحج عن سكان هاتين الجهتين : افتى ابن محسود بان الانسان معذور ان تخلف وانه ان فعل فانما يغرر بنفسه بل افتى ابو بكر الطرطوشي بان الحج حرام على أهل المغرب وان من خاطر نفسه وحج فقد سقط عنه الفرض ولكنه ارتكب اثما لانه قام بعملية مخاطرة ، ونحن نعلم ما قاله الامام العبدري ايضا فى هذا الباب . ويعتبر المغاربة ان المسافر اذا نجح فى اجتياز هذه المنطقة والمرور بها سالما كان جديرا بأن يكون رجلا بكل معنى الكلمة ، ويرون انها اى برقة تعلم الناس ـ نتيجة لظروفها ـ دروسا فى الاقتصاد بالغة قد تقربهم من حدود البخل والشح ، ولهذا نجد من الامثال المغربية السائرة : « حاج وجاز على برقة فما بقت فيه مرقة » اى انه مر على تلك الاراضي وتدرب على المسك والقبض ، ولذلك فانه لم يبق به مرق اولعب يرتجى ، فلا هي فى الصيف حرقة وفى الشتاء غرقة كما يقول الرحالة ... فما هي برقة هذه وما حدودها ؟ ان تحديدها ايضا شتت افكار الباحثين ولم يجمعهم على كلمة.. لقد قرانا ان برقة تشمل كل المسافات التي توجد شرقي مصراته الى حدود الاسكندرية فهي عبارة عن سبع مناطق : الاولى تبتدىء من شرق حسان الى وادي الاحمر وتسمى سرت ، الثانية من وادي الاحمر الى المنعل وتسمى برقة البيضاء ، والثالثة من المنعل الى سلوق وتسمى برقة الحمراء والرابعة من سلوق الى التميمي وهي منطقة الجبل



ساحل بنغازي حوالي القرن الثالث عشر الهجري



اثر من آثار طلميثة ميناء مدينة المرج التي يعتقد انها المقصودة ببرقة ، وينفصل جل المؤرخين على ان مسمى برقة هو مجموع المدن الخمس ، كما ان مسمى طرابلس مجموع المدن الثلاث ...

الاخضر ، والخامسة من التميمي الى العقبة الكبرى ويسمى البطنان (Marmarica) والسادسة من العقبة الكبرى الى الصغرى وتسمى بئر الاعقاب ، والسابعة من العقبة الصغرى الى الاسكندرية وتسمى العقبة الصغيرة .

والى جانب هذا نجد رأيا ثانيا بانها هي مدينة اجدابية ويميل الى هذا الرحالة ابو سالم العياشي ... وملخص الرأي الذي ردده العبدري ونقله الاسحاقي هنا ان برقة احدى المدن الخمس القديمة (Pentapolis) التي اختفت معالمها اللهم طلميثة التي لا يدري هل هي برقة فغير اسمها ثانيا الى طلميثة كما غير اولا يعني كما غير من قورينا الى برقة . وبرقة الآن يقول الاسحاقي نقلا عن العبدري اسم ارض لا اسم مدينة ، والمغاربة يسمون بها المنطقة التي بين (عين اقيان ؟) التي تقع غربي مدينة اجدابية وبين مدينة الاسكندرية .

وقد قرأت تلخيصات تحددها بوضوح بين القوس وبين السلوم وهي المنطقة التي يطلق عليها قديما (Cyrenica) اما عن المدينة التي كانت تحمل اسم برقة فلا يترددون في انها (المرج) الحالية التي لا تبعد عن طلميثة الا بنحو اربعة وعشرين كيلومترا ، وكانت طلميثة في الواقع ميناء المرج وجزءا منها وهـذا ما يمكن ان نجيب بـه على تساؤل العبدري السابق .

وقد قرأت اقوالا غير هذه .. وهكذا يتلخص الراي ان برقة في نظر بعض الناس هي المسافة الطويلة من شرقي مصراته الى الاسكندرية ، وفي نظر الابعض الاخر انها من القوس الى مرسى السلوم ، وفي نظر الفريق الثالث انها من المنعم الى سلوك ، وفي رأى انها اجدابية ، اما الراي الخامس فهي مدينة المرج .

ويعجبني بهذا الصدد الرأي الذي تبناه بعضهم ورودده كتاب الـدرر السنيـة في اخبار السلالة الادريسية ان انطابلس (Pentopolis) اى المدن الخمس هي جميعا مسمى برقة : قورينا ــ ابوللونيا ــ طلميثة (المرج) توكيرة ــ برنيق ، وهو تحديد علمي دقيق من شخصية هي أجدر بمعرفة برقة من غيرها ، وهكذا فاذا كانت طرابلس عبارة عن صبراتة واويا ولبدة ، فينبغي على قياس ذلك ان تشمـل انطابلس المـدن الخمس كلها ... وهناك حقيقة واقعة ، ذلك ان عواصم هذه المنطقة تغيرت عبر مراحل التاريخ فقد كانت قبل الفتح الاسلامي قورينا ثم طلميثة ثم ابوللونيا، وبعد الفتح احتلت المرج القريبة من طلميثة مركز العاصمة ، ولم تستطع اجدابية ان تنافس المرج الا في عهد الفاطميين لانها كانت ممرا للقوافل ، وعند ما وصل العثمانيون البلاد جعلوا من بنغازي عاصمة برقة .. هذا وان الرعب الذي كان يثيره اسم برقة في حديث المسافرين هو الذي دفع ــ في نظري ــ بالسيد ابن السنوسي لاختيار هذه الاراضي منطلقا للقيام برسالته الاسلامية المسالمة ، فنحن نعلم عن كثير من القادة الذي عظمت نفوسهـم وسمت اقدارهم يتوقون لاختيار اصعب المواقع واوحش المسالك لممارسة آدابهـم واخلاقهم . ومن اجل هذا فاني على غير وفاق مع الذين يؤولون وجـود الامـام ابـن السنوسي هنا على أنه كان له منذ البداية رغبة في امارة او قصد الى قيادة ، بل ان الهدف كان هو نصرةكلمة الله واشاعة الامن والطمانينة في طريق بيت الله ... وفعلا فقد صفى النفوس وطهر القلوب وامست برقة مـلاذا للعلماء ومدرسة للرجـال الذين تهيأوا بعد لانقاذ البلاد مرة اخرى من ويل الكفر وذل العبودية ...

الونشريسي : المعيار ، المجلد 1 ص 341 . العبدري : الرحلة المغربيـة تحقيـق وتقديم محمد الفاسي ص 83 ــ 84 ، محمد يوسف نجم ــ احسان عباس : ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات . تشايلد : تاريخ مدينة بنغازي ترجمـة صالـح جبريـل المعجـم 56 ــ 57 ــ 59 .

الدار سرنا سيرة ليست بالخفيفة فكان المبيت على الزحيحيفة (1) وهذه بعد اتصال المسير المنتاب ، على فم البـــاب (2) ، الذي يدخـــل منـــه للسروال (3) مفازة ستة ايام ليس فيها مـــاء الا ما يحمـــل على ظهـــور الجمال ، وجزنا في هذه المرحلة على (معطن (4) سلـــوك) ، وهـــو آبار قديمة كثيرة الماء تروى منها الركب ، ومنها نزلنا على علـــوة الضبع (5) واتحلنا منها الارتحال المعهـــود ، فكان المبيـــت على وادي كلـــود (6)

---

(1) الزحيحيفة او الزحيحيف تقع شمالي اجدابية وشمال الميناء البترولي الذي انشىء حديثا : الزويتنة ويسكنها الرحل وقت الربيع . وللوصول الى المركز كان لا بد من الاستعانة بلاندروفر ...

(2) فم الباب هو الذي يعرف اليوم بوادي الباب ... والقصد الى المدخل الذي يؤدي للمنطقة الصحراوية التي تخترق البلاد جنوب الاخضر الى التميمي وتعرف هذا الطريق عند بعضهم باسم (طريق العبد) باسم عبد كان رائدا للقوافل ، واعتقد انها غير الطريق التي تعرف باسم (مخاطر ابن كاشير) ولو ان كلا منهما يقع في صميم الصحـــراء . وقد اهمل فم الباب في المعجـــم .

(3) السروال اسم يطلق على كل المراحل الست او السبع التي يقطعها ركب الحاج مـــن سلوك الى التميمي ، وقد سميت كذلك لانها تقع فعلا في اسفل الجبل الاخضر ، واذا كانت برقة على العموم مما يستعد له الناس ، فان السروال هـــذا يعتبـــر مخنقا بمـــا يحتوي عليه من شعاب واكام صخرية وصمت رهيب ... وان كل الحجاج الذين اختاروا طريق الصحراء على طريق الساحل لا بد ان يتحملوا لبس هذا الســـروال الشائـــك ، وقد ورد ذكر مراحله ايضا في همزية ابي عبد الله التازي :

ثم منهـــا الى الزحيحيـــف لامـــا	ء هنـــاك يؤمـــه السقـــاء
ثم منه الى سلوك فنعمم المعطـــ	ـــن المنتقـــى بـــه الارواء
ثـــم راس مســـوس ، ثـــم يليـــه	سمالـــوس ففقســـه فيفـــاء
ثم منهـــا الى المدينـــة ارحـــل	ثم منهـــا الى التميمـــي يجـــاء
انهن السروال ، وهـــي لـــد التـــ	ـــقريب سبع وكم بها اصـــداء

وقد اهمل ذكر السروال في المعجم . محمد المنوني : ركب الحجاج المغربي ـ ص 95

(4) سلوك او سلوق محطة لطيفة تقع شمالي الزحيحيف غربي وادي مسوس كنت ضيفهـــا لفترة من الزمن وقد تعمدت زيارتها لاقف على البقعة التي شنق فيها المجاهد الشهيد عمر المختار رحمه الله الزاوي : المعجم 193 .

(5) علوة الضبع تابعة لمديرية مراوة في التقسيم الاداري الحديث وقد اهملتهـــا خرائـــط اكوستيني ، والعلـــوة تعنـــي في التعبيـــر الليبـــي الكديـــة اي المكـــان المرتفـــع . وقـــد أهملهـــا المعجـــم .

(6) هذا وادي كلولود كما يعرف هنا في هذه المنطقة وبقي شرقي وادي مسوس ، وهو تابع لمحافظة البيضاء : متصرفية المرج .

وسافرنا منه مع اتصال السرى الليلي ، فكان المبيت على المخيلـــي (1) من ناحية الشرق ، ومنه نزلنا الموضع الذى لا يحيــد عن نزولـــه من الحجاج قيسى ولا تميمى ، المسمى التميمي (2) وهو معطـــن فيه آبـــار كثيرة تقوم به سوق كبيرة يباع فيها كل ما يحتـــاج اليـــه الحجاج وهى قريبة من درنة (3) التي هي مدينة حاضـــرة البحـــر فيجلب الاعـــراب واهلها الى هذه السوق كل شيء ، ومنها يتزود الحجاج بتجديد الـــزاد مشرقين ومغربين . ومنه نزلنا بعد ما غابت الغزالة وسرنا جزءا من الليل وبتنا بشرقي (عين الغزالة (4)) بازاء حبس (5) فرعـــون وهـــو جون مقور فى الحجر الصلد والناس يسمونه بهذا الاسم والعهدة عليهم ، ومنها — وكانت المرحلة ربعة ، ليست بالطويلة ولا بالقصيرة — نزلنـــا (النبعة) (6) وهي شجرة كبيرة فى الفلاة تظهر على البعـــد ، ومنهـــا

---

(1) المخيلي : يتبع اداريا محافظة درنة وهي مديرية تشمل عدة قبائل : غيث ، وعواكلة ، وشاهين ، وامنفة ، واقليت .. وفى الرحالة من يسميه قصر المخيل ، وبه فعلا آثار قديمة ، وعدد من اضرحة الاولياء والمرابطين وفيهم الشيخ عمران شيخ ركب الحجاج المغربي (ت 1073) ، واسم المخيلي مشهور اليوم خاصة بعد المعارك التي جرت هنالك بين المحور والحلفاء وقد ورد ذكرها كثيرا فى مذكرات القـــادة البريطانييـــن . الزاوي : المعجـــم ص 302 .

(2) لا بد لكل واصل الى طبرق اليوم والى الجغبوب ان يمر بالتميمي وهو يتبع نيابـــة متصرفية درنة لا يبعد عنها ، وتشمل مديرية التميمي قبائل ارفاد وسليمان وحمـــر وقلعان وجرارة ولمليـــط وعلالقـــة واسنينـــات وبراعصـــة واولاد على غيرهـــا ... ابن غلبـــون : 259 ـ المعجم ص 83 .

(3) درنة على وزن رحمة حاضرة البحر كما يعبر الاسحاقي ، ونعتقد انه لولا ضيق وقت الركب وشوقه الى الوصول لكان قام بزيارة لدرنة ومع ذلك فقد قام عدد من الرحالة المغاربة بزيارتها واستمتعوا بخيراتها وطيب اهلها وقد احتضنت قبور عدد من الصحابة على راسهم زهير بن قيس البلوي الذي استشهد مع سبعين رجلا من رفاقه اثناء معركة مع الروم سنة 71 ، وقد ذكر العياشي ان جل سكانها من اهل الاندلس وفيهـــا كـــان جواب الامام العياشي جوابه المشهور عندما عتب عليه بعض رفاقه افطاره هنالك فى ايام رمضان فقد اجابهم بانه مسافر وانه « اذا وافق الحق الشهوة فذلك الزبد بالعسل ». المعجـــم ص 130 ـ 132 .

(4) عين الغزالة تقع كذلك فى منطقة الخليج ... ومكانها معروف الى الآن ... ولا بد من الاشارة للخليج الجميل (خليج البومباه) الذي يوجد على مقربة من عين الغزالة والذي نال من الرحالة ابي سالم العياشي عناية تجلت فى حرصه على معرفة اصله ، ولعله كان يعتقده منفصلا عن البحر . الرحلة الناصرية ـ المعجم ص 224 .

(5) يظهر ان الوصف مقتبس من العبدري ... لكن موقع المكان هـــذا ظل خافيـــا على الاخوة الذين كنت استفيد من ارشاداتهم ولذلك فاني لم اقف عليه ، وقد اهمله المعجم.

(6) النبعة لم نقف على اثر للحديث عن هذه الشجرة التي يظهر انها كانت معلمة ...



الخليج الذي أثار انتباه الرحالة الشيخ أبي سالم العياشي

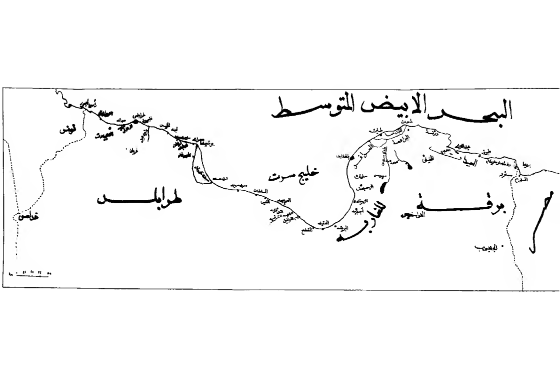
اتصل مسيرنا بمهمه قطناه سيرا واحكمنا دفنــه ، فكان المبيــت على الدفنة (1) معطن جيد عذب الماء طيب المورد ، وارتحلنا منه على جد فى السير وعدالة تبريز ، فكان المبيت على ظهره عزيز (2) .

---

(1) دفنة تقع شرقي البطنان (Marmarica) جنوب طبرق ، وهي منطقة واسعة ، وكان الحجاج يتزودون منها الماء ، ولعلها التي يعطيها الشيخ الزاوي اسم الدفنية من اراضي برقة (ص 133) وفيها يقول ابو عبد الله التازي :

ومن الدفنة اسق ثمت فانــزل شقيقة لا يكدك الاعيــاء ...

(2) يوجد فى هذا المركز ضريح يحمل اسم سيدي عزيز لا بد ان يقف الحجـاج عنـده لينضحوا اعناق مطاياهم بتراب ضريحه وهم يتوسلون به ان يرجعهم اليه سالميــن غانمين ، وقد حكي الشيخ ابن عبد الله انه سمع المسافرين يبتهلون الى الله امــام الضريح وهم يقولون : « خاطرك يا عزيز خاطرك ! » وقد حاولت معرفة عزيز هذا الذي يذكر الشيخ الزاوي انه من عرب سمالوس ... ويتاكد لي انه ضمن الشهداء الذيـن سقطوا فى طريقهم نحو اداء واجبهم فى الحرمين الشريفين احسن الله اليهم وحقق لهم ما كانوا اليه يطمحون ...



البحر الابيض المتوسط
خليج سرت
طرابلس
برقة
مصر
تونس
غدامس
بنغازي
شحات
درنة
طبرق
البردية
السلوم
الجغبوب
أجدابية
العقيلة
البريقة
السلطان



خاتمة

احب قبل ان اودع قرائى ان ازجى آيات الشكر والامتنان لسائر الذين ساعدونى على كتابة هذه السطور ، لقد امكننى بفضلهم ان اتعرف على سائر المحافظات والمتصرفيات والمديريات ، كما اقدر جيدا المعلومات الثمينة التى كنت اتلقاها من العلماء والاساتذة الذين كنت استفيد منهم فى شتى المناسبات ومن العدد الوافر من الاصدقاء الذين كانوا يقومون معي بالرحلات فى بعض الاحيان ، ولا بد ان اشكر رجال الاثار فى المحافظات الغربية والشرقية كما اشكر رجال المكتبات العامة والخاصة وامنيتى بعد ان قمت بهذه المحاولة ان لا يتردد القراء فى الملاحظة عسى ان يستفيد منها الباحثون اللاحقون ...

د . عبد الهادى التازى



فهـــرس الموضوعـــات

صفحة

صفحة

فهرس الصــــور

صفحـــة







الجمال وهي تحمل بعض ((المحفات)) التي كان الامير يستريح بها أحيانا الى جانب جدته الاميرة لالة خناثة ، ويلاحظ ان سطح ((المحفة)) او ((الهودج)) على تصميم بحيث يمكن فتحه للتهوية على نحو ما توجد عليه بعض السيارات الرياضية اليوم ، وتستعمل مثل هذه المراكب ايضا لنقل بعض الزاد والاغراض ...